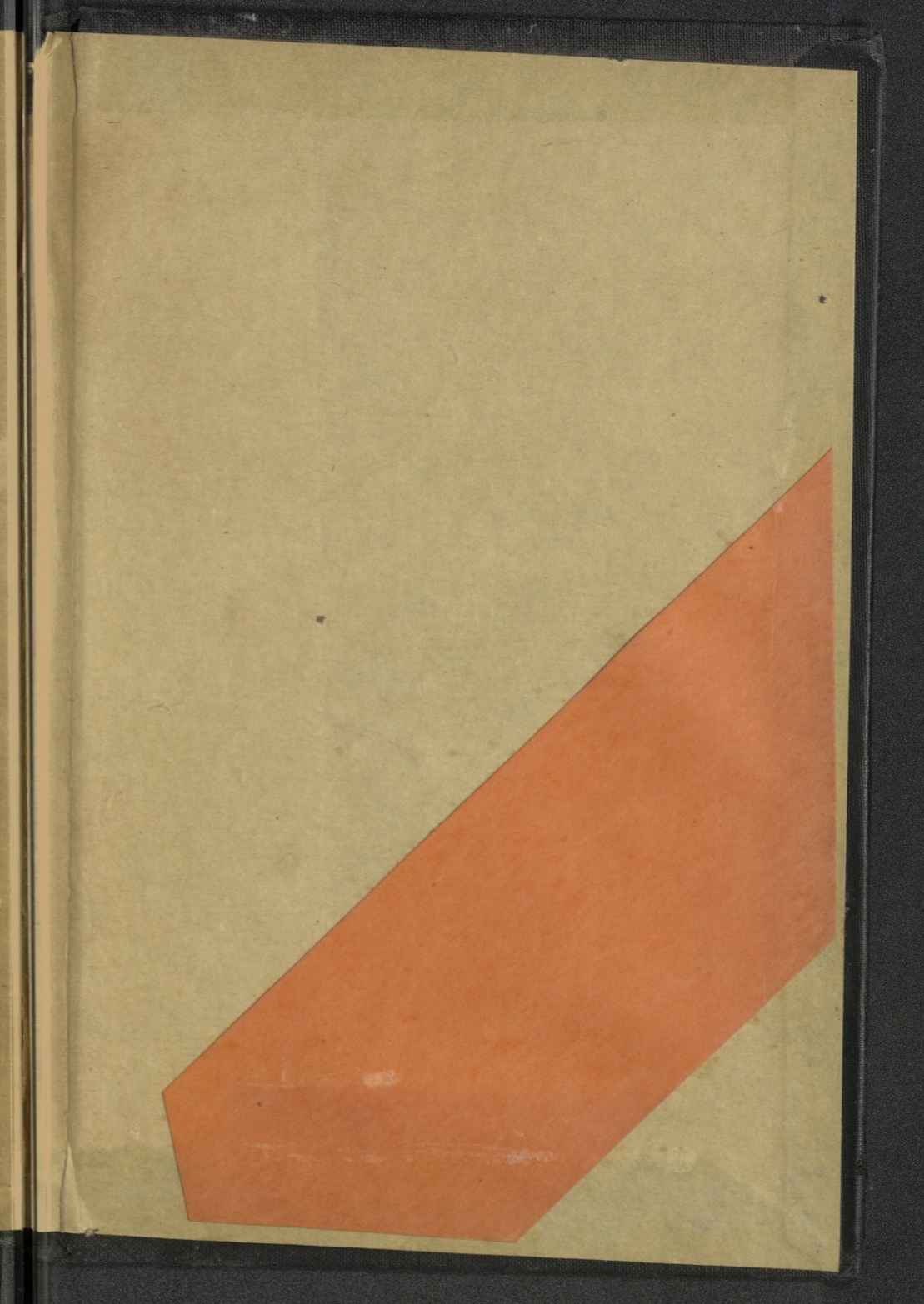
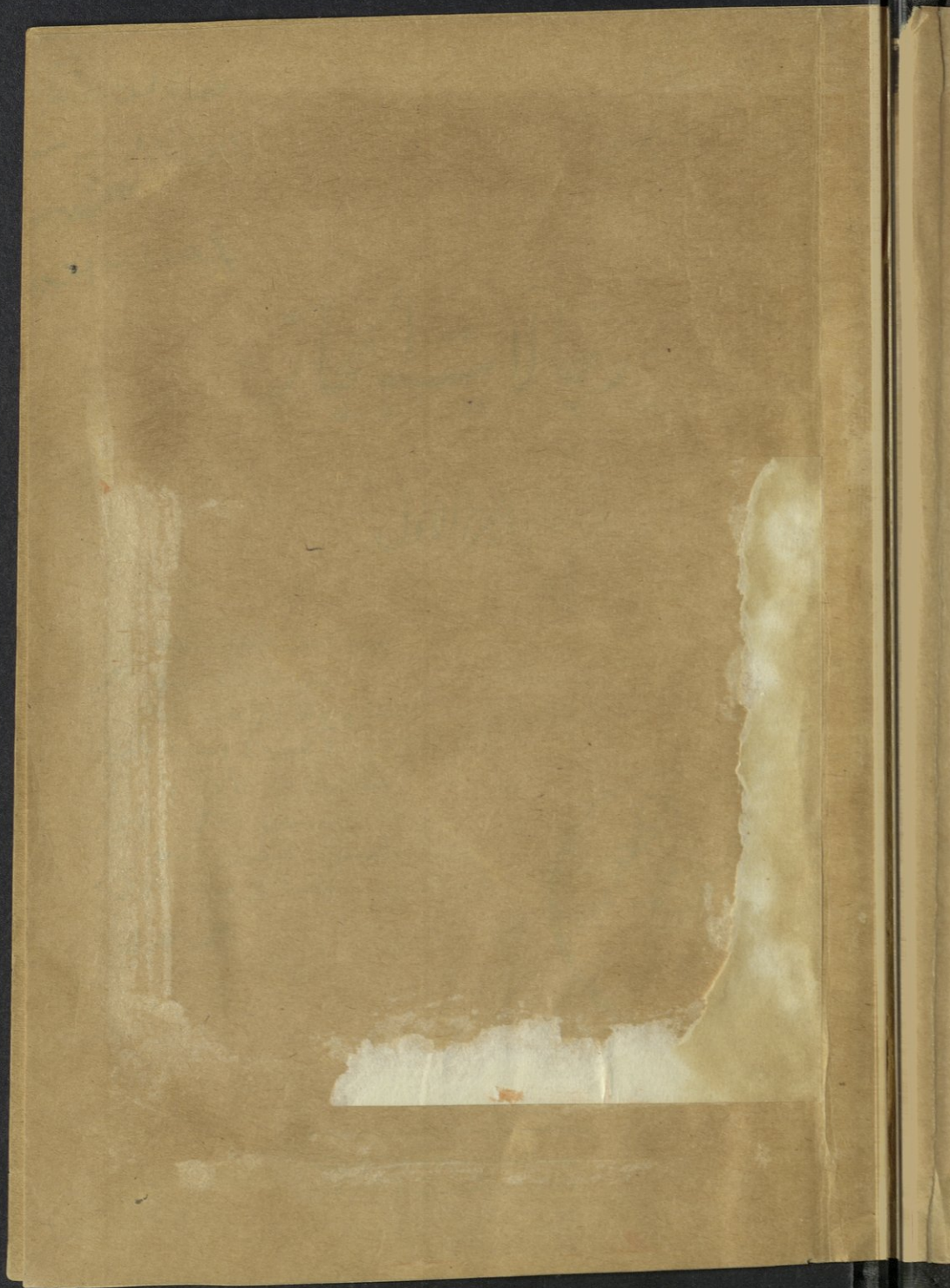


Q20.053. ELTANA. A. C.







بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا . فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ . . . »

« قرآن کریم »

في ميادين كان هو المحلى فيها . وأنتم أعلم الناس بما ينبغي أن يكون عليه هذا القطر في حاضره ومستقبله ليلحق بماضيه الحافل بمجلائل الأعمال ، فامتدت إليه يدكم الرحيمة الموسمية بالعطف والتشجيع ، وأمدتموه بكل ما وسعكم من معاونة وتمعّيد ، وبمثم فيه من روحكم الفتية السامية ، فإذا بالحياة تدب في أوصاله فوارة متدفقة ، وإذا بصوته يأخذ في الارتفاع ، وإذا بارتفاعه بدأ يتجاوز حدوده ، وإذا بركب الحياة ينصت إليه ويسمع إليه في عناية واهتمام .

وسوف لا يمضي عليه طويل وقت - بإذن الله تعالى - حتى يلحق بركب الحياة ، وينتظم في سلك الأحياء ، ويشاركهم في بناء صرح الحضارة الإنسانية العامة وسوف يستمد منه سكان الشرق والغرب معاني الحق والقوة والجمال ، كما استمدتها العالم منه في ماضيه يوم كان العالم يتخبط في ظلمات الجهل والجمود ، وكان بنوه مصادر النور ومنابع الرحمة للناس من جميع الأجناس ، وإنها لأمنية غير بعيدة .. بل هي في متناول اليد . أليس والدكم العظيم يستنير في حياته بهدى صاحب الرسالة المحمدية صلى الله عليه وسلم ، ويسير بسير صحابته الأكرمين؟؟ وهل وصل أولئك الأجداد - محمد وأصحابه - إلى ما وصلوا إليه من إشاعة السلام على الأرض ، وضمان العدالة لأجناس البشر إلا بتعاليم القرآن ! وإخلاصهم الفذ لتحقيق تلك التعاليم؟؟ وما على الأرض اليوم من يحرص على تعاليم القرآن وتعاليم محمد مثل حرصكم وحرص جلالته والدكم عليها .. وإن من يستمد العون من الله ويسير في الحياة على سنن محمد وصحابته ويحكم بما أنزل الله ، ستكون له العزة على أهل الأرض .. ذلك وعد الله لعباده الصالحين ، والله لا يخلف الميعاد .

فحق على هذا الجيل أن يتقدم إلى سموكم باحترام بالغ لكي يطبع على يديكم الكريمة
قبلة التعظيم والتقدير .. لأنها اليد التي عرفت كيف تنفض غبار الكسل عن نفوس
طلالما آلمها ماهى فيه ، وطلالما تطلعت بأبصارها إلى من ينقذها، ويبث فيها روح العزم
والعزيمة .

واقدر شاء الله أن يكون جلالة والدكم هو المنقذ ، وأن يكون سموكم هو المواسي
الشفق ، فامتدت يديكم إلى تلك النفوس المسكومة ، والقلوب المفؤودة ، فانتشلتها
وسارت بها قدماً وفسحت لها مجالاً في العلم والعمل ، وستصل بإذن الله ثم بمؤاساتكم
وعطفكم وتشجيعكم إلى حياة كلها صفاء وكلها نور وكلها طلاقة .. مستضيئة في
سيرها بهدى محمد صلوات الله عليه وصحابه الأكرمين ، معتمدة على الله في سراها ؛
فدم يا مولاي للأدب تحمى حماه ، وابق للأدباء توجيههم بإرشادك إلى خير اتجاه ،
والله الهادي إلى الصواب ما

المخلص

ابراهيم هاشم فهدلى

مراجع الكتاب

- | | |
|------------------------------|-------------------------------|
| دروس التاريخ الإسلامى للخياط | تاريخ ابن الأثير |
| » » » لمحمود طه | تاريخ الطبرى |
| السيرة النبوية للحلبى | تاريخ الخميس |
| عصر المأمون للمنانى | طبقات بن سعد |
| حياة محمد للدكتور هيكل باشا | زهر الآداب للحصرى |
| حماة الإسلام لنجيب بك | مجلة الإسلام |
| الدولة الأموية للصولى | إحياء علوم الدين للغزالى |
| مجلة الرسالة للأستاذ الزيات | عمر بن الخطاب لابن الجوزى |
| » المنهل للأستاذ الأنصارى | ديوان حسان بن ثابت الأنصارى |
| محاضرات الحضرى | الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى |
| طبقات الشافعية للسبكى | فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين |
| | ضحى الإسلام » » » |

الكتاب الذى بعث به عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين بك
للمؤلف بعد أن اطلع على مؤلفه

سىدى :

سلام الله وبركاته عليك . أما بعد فقد نظرت فى كتابك نظراً سريعاً ولم يتح لى ضيق الوقت وكثرة العمل أن أستقصى قراءته استقصاءً كاملاً على رغبة منى فى ذلك وحرص منى عليه . وإنى لأهنئك تهنئة صادقة بهذا الجهد الحصب الذى بذلته وهذا النجح الذى وفقت إليه . فحاجة العالم العربى إلى أن يسمع صوت الحجاز فى العصر الحديث ملحة بعد أن غدّى صوت الحجاز عقول العرب وقلوبهم منذ أقدم العصور إلى الآن . وحاجة العالم العربى إلى أن يسمع الحجاز يتحدث عن نفسه فى هذا العصر الحديث ملحة أيضاً بعد أن تحدث الحجاز عن نفسه فى العصر القديم فأحسن الحديث . وقد أردت أن تكون لساناً من أسنة الحجاز فى هذا العصر فوقت إلى ما أردت توفيقاً حسناً . وإنى لأحمد فى كتابك هذه الحماسة اللتهبة وهذه العواطف المضطربة وأرى أنها ليست إلا قبساً من هذه الجذوة المقدسة التى تطهر وتدكى دون أن تحرق أو تؤذى .

فامض فى جهدك القيم مصاحباً وارفع صوت الحجاز موفقاً وأحى فى نفوس العرب هذه الصلة القوية المقدسة بهذا الاقليم الحبيب المقدس الذى أشرق منه نور العلم والأدب والدين .
وتقبل أصدق تحياتى .

طه حسين

٩ رجب سنة ١٣٦٤

١٩ يونيو سنة ١٩٤٥

كلمة الأستاذ محمد حسن عواد

قد يلتق التاريخ بالفكرة الفنية في عمل فني يشبه العمل التاريخي أو بالعكس ، وهذا الكتاب الصغير الذي نضعه أمام القارئ إنما هو مثال واضح لهذا الالتقاء فهو في حقيقة أمره فكرة فنية قبل أن يكون كتاباً تاريخياً فيما أرى ، ومن الظلم لجهود صاحبه أن يتحدث عنه كاتب مقدمته ككتاب تاريخ فقط : فما نظن أن صاحبه قصد من وضعه البحث في تاريخ الحجاز في عصر من عصوره الغابرة أو الحاضرة بحسب . بل إننا نتأكد أنه إنما قصد به قبل ذلك الفكرة الفنية : فكرة إبراز صورة بارعة - أو صحيحة على الأقل - من عبقرية الفرد الحجازي في مختلف أشكالها سواء عبقريته في السياسة والدهاء ، أو في الفقه والقضاء ، أو في الحرب والقيادة ، أو في سمو الخلق النفسي . نفهم ذلك من تضاعيف عبارات الكتاب ومن معارف وجهه التي تطالعنا به فصوله ناطقة مفسحة من دون حاجة إلى أن يصرح هو لنا بهذا القصد . فإن من الغباء أن يحتاج قارئ مثقف يقرأ هذا الكتاب لأول وهلة إلى مثل هذا التصريح من مؤلفه اللبق الذي إنما صبه في قالب تاريخي أو شبه تاريخي ليجمع بين فضيلة التاريخ ولعمان الفكرة الفنية احتفاظاً بالتقديم ومحاولةً لمعالجة الجديد .

والحق أن النزعة الشائعة اليوم بين الشبان الأدباء هي أخذ الحقائق - سواء العلمية منها والأدبية والاجتماعية - بطريق الفن لا بطريق التاريخ فالذين يقرأون حياة النبي مثلاً على أنه إنسان مصلح ورسول من الله نجح بعظمته الخلقية في إبلاغ دعوته إلى الله نجاحاً رائعاً يخضع له الشعور المعصرى أكثر من الذين يقرأون حياته على أنه من رسل الله المعروفين وأنه نبينا الذي علمنا هذا الدين من قبل نيف وخمسين

وثلاثمائة وألف سنة ، فإن هذا الفريق يكتفون من تاريخه بالقدر الذي لا يعيب التاريخ من يكتفى به لأنه يحقق معنى الاطلاع على التاريخ . ولكن الفريق الأول يجد أمامه من اتساع أفق الفن الإنساني ما يدفعه إلى التغلغل في ألفاف حياة هذا النبي العظيم والتزود من معرفة خصائص نفسه ومميزات ذاته الكريمة لأن دافعه هو الفن ، وبهذا يتكشف له ما لا يتكشف لغيره من أصحاب النظرة التقليدية المقيدة .

بهذا الروح استطاع الكتاب المسلمون وغير المسلمين أن يبرزوا لنا من مميزات نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يستطع إبرازه الكتاب المزمتمون وحسبك أن تقرأ هذه الفقرات الفنية لكتاب فنان - هو الأستاذ توفيق الحكيم المصري - في سر عظمة النبي صلى الله عليه وسلم لتأخذ المثال واضحاً على صدق ما ذهبنا إليه . قال الكاتب الأديب : « ينبغي لمن أراد أن يدرك سر عظمة النبي أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب وإذا هو بمفرده في جانب . هو وحده الذي يدين بدين جديد بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم ، والهند والصين ، وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ولا يشعرون له بوجود . هذا هو موقف النبي وهذا هو موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان ، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة وتوازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه واتخذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم ، فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً ، والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة العتيقة يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط في ورقة منها ، إنها إذن مبارزة بين فرد أعزل وعصر بأسره يزجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته

ورجاله وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره وتقاليده وماضيه ومجده وتاريخه . . . هذه
المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي ، على أن المعجزة بمد ذلك
ليست في مجرد التحدى و « رمى القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ
ذلك البحر الطامى العجاج : « ان اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني » ذلك الصوت
الذى لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة ، وليست المعجزة كذلك في
مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل
الوحيد الأعزل من هذه المعركة الخيفة ظافراً منتصراً فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو
عند قدميه منكس الأسلحة وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلاً وقهقهته صلاة
عميقة . كيف ربح هذا الرجل الموقعة ، ما وسائله ؟ هل كانت له خطط ؟ وأساليب
وقوة من شخصه مكنته من النصر أو أن الله هو الذى نصره دون أن يكون لشخصية
النبي دخل فى الانتصار ؟ عقيدتى دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير . . . الخ (١)

هذا فيما يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو مثال واضح لطرائق الكتابة الحرة
المرتكزة على فكرة الفن قبل أن يخطر لها الارتكاز على فكرة التاريخ ويستطيع
القارىء أن يقيس على هذا المثال أمثلة أخرى للحديث عن أى فرد ممتاز أنجبه هذا القطر
العزير وأنت لا تحطىء فى هذا الكتاب أمثلة عديدة تترقق فيها الفكرة الفنية مما ثبتت
قطعاً أن من الغباء أن نحشر هذا الكتاب فى زمرة كتب التاريخ يبرودها العلمى
وتصميمها السردى فاسمع إن شئت لقول المؤلف عن الحسن بن على بن أبى طالب
« ولو كان الآن عائشاً فى هذا القرن لكان أول من نال جائزة نوبل للسلام ولما أبقى
شيئاً من الفخر لرجال السلام الدولى المعدودين من أقطاب السياسة العالمية من

(١) راجع عدد الرسالة الممتاز لسنة ١٣٥٦

أضراب « شترزمان » رجل الواجب، و « بريان » الوزير الفرنسي وصاحب دعوة اتحاد أوروبا، و « ولسن » صاحب فكرة « عصبة الأمم » ، أو لقوله عن عمرو بن العاص : « صحابي كبير وقائد من أفذاذ القواد الحجازيين ، وقطب من أقطاب السياسة الذين يستطيعون تكليف مجرى التاريخ طبق رغباتهم ويتصرفون في مصائر الأمم والشعوب فلا تصدر الأمم إلا على وفق مشيئتهم وما تمليه أهواؤهم ، ولا أدل على ذلك من الدور الخطير الذي لعبه على مسرح السياسة في ذلك الوقت أثناء وقوع الخلاف بين علي ومعاوية .. إذ لولاه لما استطاع (ابن هند) أن ينفذ مشروعه الخطير الذي قام لتحقيقه في جر الخلافة الإسلامية إليه ثم قلبها ملكاً عضوداً يتوارثه أبناؤه من بعده » ، أو قوله عن خالد بن الوليد : « فإذا افتخر تاريخ انكترا بناسون ، وتاريخ أمريكا بواشنطن ، وتاريخ فرنسا بجان دارك ، وتاريخ إيطاليا بغاريبالدي ، فإن تاريخ العرب والمسلمين ليفخر أشد الفخر بخالد بن الوليد فاتح العراق وسورية وإيران وقائد أحسن قوة منظمة في الجيش الإسلامي العربي ، وألمع جوهرة في تاج قواد العرب » أو قوله عن واضعي نواة المدارس في الأمصار : « افتتح الحجاز العراق وفارس ومصر والشام واليمن والهند والأندلس وأفريقية وضم إليه نجداً والجزيرة واليمامة والدهناء ، وكانت كل هذه الأمم التي تسكن هذه الأقاليم الشاسعة منحلة العرى مفككة الأوصال لا يعاملون أين وجهتهم ولا إلى أين ينتهي بهم القرار ، ذاهلين خاملين تنخر فيهم الفوضى ويفتك فيهم الاضمحلال ، منوا بولاة جائرين وعمال ظالمين وإدارة فاسدة تسيطر عليهم وتسير دفتهم وتسوقهم سوق الأنعام إلى مذابح الأطاع والشهوات . وكان الناس في ذلك الوقت أشبه ما يكونون بنائم ضغط على صدره كابوس قوى شل حركته وخدر أعصابه فجاء الفتح الإسلامي ورفع ذلك الكابوس وطرده عنهم ففتحوا من غفلتهم وتيقظوا

من سبائهم ، فوجدوا أمامهم رسل الإنسانية وأئمة الهدى يحملون بين أيديهم رسالة الدين ويلوحون بأعلام العلم وألوية الحرية ، وينادونهم أن هبوا لتغذية أرواحكم وعقولكم بالمعارف السماوية التي اختارنا الله لأن نكون أساتذة الكون فيها » أو قوله في ترجمة خبّاب ابن الأرت : « وهذا مظهر من مظاهر العظمة وشكل من أشكالها المندسة في الأفراد العاديين الذين يزخر بهم المجتمع الحجازي في ذلك الوقت من أبناء الطبقة الفقيرة والتي لا تنتمي إلى البيوتات الرفيعة وليس لهم من العصبية والثراء ما يجعل لهم مكاناً محترماً بين مواطنهم . وهذا اللون من ألوان العظمة يربنا أن العظمة ليست منحصرة في أناس دون غيرهم ، وإنما هي سر يودعه الله نفوس من اصطفاهم من خلقه ، وإن عظمة العظيم لا يحجب ظهورها فقر ولا يستر علامتها إدقاع ، وليست العظمة وفقاً على أولئك الذين تصطف لهم الجنود وتحييهم الجماهير وتخضع لهم الرقاب وتدين لهم الشعوب ، ولكنها أروع وأعمق وأصل ، بسير أولئك الذين تخضع لهم القلوب قبل الجسوم وتدين لهم العقول قبل التقاليد لما لهم من العظمة الأصيلة غير المتصنعة ، وليست وفقاً على أولئك الذين يتصدرون المجالس ويرأسون المجتمعات ويحترمهم الناس فيقومون لهم إذا قاموا ولا يجلسون إلا إذا أذنوا ، ولكنها أمثل وأسمى عند أولئك الذين تشخص لهم البصائر قبل الأبصار ، وتعترف لهم النفوس في قرارتها بأنهم القدوة التي يجب أن تمشى البشرية وراءها . »

أفلا يرى القارىء في هذه النماذج المنقولة فكرة فنية تشف عن غرض أسمى من المقصد التاريخي .

وأين هذه الطريقة من طريقة التنويه بالزمن المتعاقب والاهتمام بكون الخلافة الإسلامية مثلاً كانت في المدينة ثم مشت إلى الشام ثم عرجت على العراق ثم طارت

إلى تركيا ، أو الاهتمام بأن عمر بن الخطاب ولد عام كذا وتولى الحكم بعد أبي بكر وقبل عثمان بن عفان ، وأن هذا الحادث التاريخي الهائل حدث انبثاق نور النبوة المحمدية كان في الحجاز فحسب دون أن نستشف ماق هذه الميزة من معان سامية واعتبارات أدبية تحجب إلينا تاريخ بلادنا وحياة أبطالنا الممتازين ورجالنا البارزين ، وتوضح لنا المناهج التي ساروا عليها بأسلوب يقربها إلى نفوس أبناءهم ومن يريد أن يت رسم خطاهم المحميدة وذلك بما فيها من صدق التصوير ، وجمال الحقيقة ، ودقة البحث وروعة العرض .

هذا ما نحب أن نلفت إليه الأنظار وهو ما لحظنا أعراضه كامنة في كتاب الأستاذ الفلالي هذا ، وقد نكون مبالغين في خلع الفكرة الفنية على الفلالي وكتابه ، كما أننا قد نكون مقصرين في تحليل الكتاب وإعطائه حقه من البحث والتنقيب عن خباياه المنطوية في خلال العبارات والسطور والفصول . ولكننا موقنون أننا على حق وهدى حين نقول ذلك وأننا على يقين من أن عمل الفلالي في كتابه هذا يسمو على مواضيع التاريخ ويتصل بأكناف الفن وهو ملاق إن شاء الله من تقدير الأدباء والقراء ما هو خليق به .

والسيد إبراهيم الفلالي مؤلف هذا الكتاب رجل مغمور ولكن كم في المغمورين من أفراد يأتون بما لا يأتيه الناهيون من أصحاب الأسماء الطائرة التي يتكرر ذكرها في الصحف ويتردد لو كها في الأماكن ؛ وليست المواهب والجهود حبيسة على هؤلاء دون أولئك ولكن الحكمة مستكنة في خبايا النفوس لا في حروف الأسماء ولا تكشفها إلا الظروف وما يتبها لها من أسباب الاكتشاف القديرة .

فلنصافح هذا الكاتب معجبين ، ولنقرأ كتابه مقدرين .

ويسرنى جداً أن يصمم الأستاذ الفلالي عزمه الأخير على اختياري لتقديم كتابه هذا إلى قراء الأدب ، وأن يتفنن في تجديد هذا العزم ويصر عليه بإخلاص فقد قدم مسوداته كاملة من شهرين لهذا الغرض فلم يكن بدّاً من تحقيق أمله العميق وإنه لمشكور حيث هيأ لي فرصة المساهمة في خدمة هذا الوطن اللامع في سماء البلاد العربية لعان كوكب المشتري ، والزاهر بماضيه الممتاز المتفوق وإن من العقوق لمن تتاح له فرصة كهذه أن لا ينتهزها لإثبات ما تحمله جوانحه من حب صادق لبلاده وأمته ونية حسنة للرجبة في أن يعلو شأنها بكل ما تنطوى عليه من هيئات وأفراد والله الموفق لما فيه الخير العام

تحريراً في ٢٠/٢/١٣٥٦

محمد حسن عواد

كلمة الأستاذ أحمد السباعي

لعله لا يعيب المكتبة الحجازية شيء بقدر ما يعيبها فقدان الحلقة التاريخية التي تصل أواخر العهد العثماني بالعهد الحاضر في الحجاز فأنت تقرأ العصر الذهبي للحجاز في كل كتب التاريخ الإسلامي في سعة تشبع نهمك وتكشف لك عما يهملك من نواحيه المتعددة كما تقرأ مثله عن عصور سبقته مغمنة في أعماق الجاهلية وعصور لحقته في ظلال الدول الإسلامية إلى جزء غير قليل من العهد العثماني، ثم تفقد الحلقة وتقع فجأة في تيه يباب ممسوخ مظلم المسالك لا تكاد تبين فيه إلا بصيصاً لا يهدى إلى جادة ولا يساعد على فكرة.

... أجل، فقد كان المؤرخون إسلاميين في كل العصور يعنون بالتأريخ في بلادنا كحدث إسلامي. فهم إذ وسعت دراستهم وإذ تشعبت ومضت متغلغلة في جميع نواحي التاريخ فهم إنما يترسمون في ذلك الحدث العظيم وإذا كان الحجاز وطن هذا الحدث الجليل وأبطاله فقد نالته بالضرورة هذه العناية التي نجدها مبسوطه في كتب التاريخ الإسلامي.

بيد أن هذا الحدث ما فتى أن يعرج في طريقه إلى الشمال فاستوطن منازل الأمويين ثم انحدر جنوباً شرق الوطن الأول فنزل في قصور العباسيين. فخرج وراءه التاريخ يستقصيه ويترسم آثاره حتى إذا ما تشعبت فروع الخلافة وضربت في الأرض ضرب المؤرخون وراءها جدداً ومشوا وراء أبطالها من الشرق إلى الغرب وما أن استوى الأمر للدولة العثمانية حتى مضى التاريخ خلفها وراء الحدث الإسلامي.

وفي كل هذا ترك الحجاز الوطن الأول غفلاً لا يذكره التاريخ إلا عرضاً ولا

يعنى بأحداثه إلا كما تعنى أنت بمناسبة خارجه تعترضك أثناء الحديث عن موضوع خاص بك .

على هذا بقى فى التاريخ من ناحية الحجاز ثلثة، وبقيت فيه ثغرة مفتوحة بديه الباحث فيها ويضيق فى قفرها المجدب .

فأنت إذ يبدو لك اليوم أن تقرأ الحجاز كتاريخ متصل يبدأ بالجرهميين على اعتبارهم بناته قد تستطيع أن تشبع رغباتك فى معلومات وافية عنه متسلسلة إلى اليوم الذى بزغ فيه الإسلام، وتستمر فى ذلك إلى اليوم الذى غادرتة الخلافة ثم يقصر بك . حتى إذا جئت القرون المتوسطة والمصور التى سبقت أيامنا بنحو قرنين فقدت دفعة واحدة كل أثر يدلك عليه تقريباً، وأصبحت أمام مجهول تنقطع فيه الصلة أو تكاد، وتفقد الحلقة بين ذلك الماضى وهذا الحاضر الحالى .

إذاً فنصيب مكتبتنا الحجازية هو فى هذا القصور الفاضح وليس تمت مأخوذ به فى نظرى سوى جماعة العلماء فى بلادنا فى القرنين السابقين على عصرنا إذ المعروف أن التعليم فى خلالهما كان مقصوراً على من يسمونهم العلماء أو طلبتهم فليس هناك من يمكن أن يكتب التاريخ من الحجازيين غيرهم : لا أدباء كانوا يوماً بالمعنى الواسع اليوم ولا بجاثين ولا غيرهم ممن يصح مطالبتهم بمثل ذلك ولقد كان لغرماننا هؤلاء جهود لا يصح غمطها بالرة . إلا أن التاريخ كان مظلوماً معها إلى أبعد حد فى الظلم مما أنتج هذه الثغرة المفتوحة . فقد شوهد إنتاجهم فى كثير من علوم الدين وملاّت مجلداتهم فى اللغة وقواعدها وبلاغتها وبديعها وبياناتها قسماً كبيراً من زوايا المكتبة الحجازية ولم ينسوا أن يعنوا مع ذلك بالشعر وغزلياته بالخصوص فتركوا لنا تراثاً ضافياً بأبداع ماوصفت به العيون الجميلة والأهداب الطويلة والخواصر الرقيقة وما تندّر به أدباؤهم

وفقرها واهم وأصحاب النكات في أيامهم ، وهكذا هكذا ، إلا التاريخ فقد بقي مفقود العناية في غير ما شذ .

أجل فقد شد أعلام من غرماننا فعنوا بالتاريخ الحجازي وتحدث به بعضهم إلى الأيام التي عاشوا فيها في القرنين السابقين وكاد هذا ينفعنا لو لم يقصروه كذلك على الكعبة وأصحاب كسوتها والمساجد والمآثر وبنائها والأمراء وغزواتهم وتناطحهم السياسي . فجمعوا فيه كثيرا من العناية في الناحيتين الدينية والسياسية ولم يزيدوا فبقيت المسألة بذلك في مكانها لم تتقدم شيئا ففيناك النواحي الاجتماعية وسير العلوم والعمران والعادات والأفكار أشياء مغللة لا أثر لها فيما كتبوا .

قد تمر بك عرضاً وبدون سابق إصرار نتف في شؤون الاجتماع والعمران في ثنايا بحوثهم عن كساوي الكعبة أو نطاح الأمراء ، لكنها لا تزيد عن كونها تريد في أوارك وتعظم في ظمك وتريد في بيان حاجتك إلى مثل هذا السياق لتتعرف به شيئا مما يهيمك من أخلاق أجدادك ومدى تفكيرهم وعمار بلادك ومدى تطورها .

هذه الثغرات المفتوحة هي العيب الفاضح الذي يظل يلزم مكتبتنا . وهي الشيء الذي نشارك اليوم نحن في وزره ويتحمل مسؤوليته هذا الشباب المتعلم بيننا .

ليكن لأجدادنا عذرهم في تنجيهم في بحوثهم إلى ما يمتقدونه غاية في التاريخ أما نحن فلن نجد - إذا تحرينا العدل - ما يصح أن نسميه لنا عذرا بعد أن بدأت تنفتح أمام العالم جوانب في التاريخ ما كان يعرفها أجدادنا وبعد أن أصبح من أغراض التواريخ ما لم يكن في يوم ما عرضا .

نحن مسؤولون أمام الحق والواقع عن هذه الثغرة ومطالبون بها ويعتبر تقاعدنا عنها جنابة لا تغتفر ولا تنتحل لها الأعذار التي تلصقها للسابقين من أجدادنا .

لنخرج من هذا الجمود فنعمد أولاً إلى مطمورات المسكاتب العامة فنغوص في لججها
باحثين كما يتغلغل غواصو اللؤلؤ في لجج الأمواه وبين شعاب القيعاب بحثاً وراء آثار
بلادنا الاجتماعية الضائعة وبين المطولات ملتقطين الواحدة إثر الأخرى حتى نعقد من
ذلك ما نسد به الثغرة ونكمل به النقص .

وفي يقيني أن أقوى الدوافع لخدمة هذا الغرض هو التشجيع وتقدير الأيادي
العاملة بمختلف أنواع المشجعات والمغريات . أما أننا نقابل على الدوام كل محاولة في هذا
الصدد بشيء من الفتور والإعراض حيناً، والاستياء والاستهجان أحياناً فذلك سبيل
يحول على الدوام دون الوصول إلى نتائج نافعة، ويساعد على مباركة الإقحاح والإجحال
ويبقينا لا نتقدم نحو الأمام خطوة واحدة .

ويحسن بعد هذا السياق أن أقدم أول محاولة يقوم بها شباب حجازي هو السيد
إبراهيم هاشم الفلالي فيقدم في كتابه هذا رجالات الحجاز وأحسبني أستطيع أن أمضي
طويلاً في دعواي بأنها محاولة مشكورة نحو الغرض الذي أشرنا إليه .

أجل فشابنا الذي تقدم اليوم لمؤلفه روح حساسة تتحرق غيظاً على هذا الماضي
المبصر، وتتألم لاندثار معالنه وتناسي حقائقه الناصعة وهو في الوقت نفسه يشعر نحوه
بقدمية ويمضي في هذه القدسية محضاً في عصبية حادة الفيرة يفتزع فيها الرجال من
أقطاب الإسلام - كما سترى - انتزاعاً ليردهم إلى أصولهم في الحجاز وليضفي عليهم
أثواباً حجازية بحمته، ويروح على حساب ذلك يتغنى بالحجاز بما يهز العواطف ويربحها
وكانه في هذا يريد أن يثار من هذه الأجيال التي دججت الحجاز ورجاله ثم أفنته في
جامعة واسعة فناءً رآه جديراً بالبعث . وكأنه فيه أراد أن يقسرك على الاعتراف
بكيونونة خاصة لها ميزتها في تاريخ أجيال الإسلام ، ولها استقلالها الذي يجب

يكون محلاً للإلفات النظر بصفة خاصة ونحن إذا كنا لا نريد أن نناقش المؤلف في هذه الحدة كثيراً لأنها عقيدته التي لا ينفع النقاش فيها فإننا نريد أن نعتبره عاملاً من عمال هذا الصرح الذي نفي إهماله كما نعتبره مؤلفاً حجازياً يضع اليوم لبنة هامة فيه .

صحيح إذا ادعى مدعى أن الغرض الذي نرمى إليه وننادى بمحاولة السير نحوه أبعد من هدفه فقد كنا نحرص على أن يكون لنا رجال يبحثون للتأريخ الحجازي أكثر مما يبحثون نواحيه الاجتماعية ، وصاحبنا اليوم يقصر بحثه على تراجم رجالات الحجاز وليس ذلك كل شيء في غرضنا الذي ندعوك إليه - أقول في مثل هذا الادعاء صحة لا ننكرها كما أن إلى جانبها في عمله هذا حسنة جديرة بالتقدير والشكر .

فخصرته في سن هذا التوجيه الحجازي المحض في مؤلفه عامل يضع لبنة في صرح هدفنا وهو في سرد هذه الروح الحادة في عصبيتها ينشئ لنا أنعاماً قد تصح لتساوقها في مؤلف واحد أن تعتبر مهيجا يحرك الأعصاب للعمل في البحث عن هدفنا البعيد بين التراث في الأطباق المطمورة، لنقدر إذاً جهده كغفور متحمس في غيرته ولتقابل لبنته بما يستحق من عطف ولنؤجل حسابه نزولاً على قاعدة البعد عن استهجان كل ما يصدر منا وأمثالاً في تشجيعه وإغراء غيره على المضي نحو الهدف المنشود والغاية المطلوبة

سباعي

في ١٣٥٦/٩/١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تَهْيِيد

التفاخر : غريزة في الطبيعة الإنسانية وقد قص علينا القرآن الكريم نوعاً من أنواع المفاخرة في قوله تعالى « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » وفي قوله تعالى « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الخ ، وكما يفخر الإنسان على أخيه الإنسان ، كذلك تفتخر الأمم والشعوب بعضها على بعض ، إما بنحسب أراضيها ، أو بوفرة رجالها ، أو بضخامة ملكها ، أو بما أحدثت في العالم من حضارة ، أو بما أشادت على وجه الأرض من معالم المدنية . لذلك نرى في كل وقت افتتان الأمم بهذا التفاخر ، وتفنهم في إبرازه على مختلف الأساليب .

تعتز كل أمة بجنسيتها ، وتدعى أنها منحدرة من خيرة الناس وأنها من سلالة أكرم العناصر البشرية . وبيالغ الزعماء في الوقت الحاضر في هذا الادعاء مبالغة تكاد تكون منكورة إن لم تكنها . فهم لم يقفوا في الاعتزاز بجنسيتهم عند حد التقديس للأبطال وإقامة التماثيل في الميادين العامة ، تخليداً لذكرى المجد والعظمة في أشخاص عظامهم بل يذهب بهم الغرور إلى أبعد حد ممكن ، كما ذهب الهتلريون إلى التفوه بهذه الجملة الضخمة التي جعلوها شعارهم « ألمانيا فوق الجميع » والفاشيون ملأوا الدنيا ضجيجاً بهتافاتهم « الدنيا لنا » ، والسكاليون يقولون « إذا قدر - لا سمح

الله على تركيا بالغناء فإن السكرة الأرضية تتحطم » وينشط المؤلفون في تأليف الكتب تأييداً لكل ذلك في أساليب منمقة جذابة وتعايير رشيقة أخذاً ، وكل أولئك يفتقرون لأنفسهم ذلك ماداموا يلهيهم به عواطف شعوبهم فتجد وتجهد وتسمى متكاتفه متضامنة لنيل الغاية التي رسموها في برامج أعمالهم ، ولئلا تحمد هذه الجذوة التي أشعلوها في نفسية الشعب تراهم دائبين على البحث والتنقيب في بطون الأسفار ، وفي أعماق الحفائر ، وفي جوف الأرض ، علمهم يجدون سيرة مغفلة ، أو حضارة مندثرة ، أو أثراً قديماً يتخذون منه دعاية واسعة وبرهانا قويا لتبرير ما هم سائرون إليه .
والحقيقة : أن في ذكرى المجد الماضي والتعني به أكبر حافظ للأمة على النهوض وما من أمة إلا ولها ماض يحفل بأحداث رجالها وتاريخ يزخر بأعمالهم ، ولكن جرت سنة الله في خلقه أن لا تستمر الأمم على حال واحدة ، فلا بد لكل أمة من أيام تسعد فيها ، وأيام تشقى بها ، ولكل شعب فترة يغفو فيها ليفسح طريق العمل لغيره من الشعوب حتى إذا أمضه النوم ، وتجاقت جفونه من المضاجع ، وشعر بأن كرامته كادت أن تمتهن وحرمته أشرفت أن تستباح نهض لاستدراك الأمر ، واستئناف الجهاد ، ويطول جهاده أو يقصر بحسب ما فرط ، ولكنه ينال بحسب ما يبذل من تضحية ونشاط ، وربما عادت سيرته الأولى وتبوأ مكانه القديم .

وقد دار هذا الدور الطبيعي في حياة الشعوب على الشعب الحجازي فتوالت عليه الأحداث وأضفت عليه سبائناً عميقاً حتى ظن أنه لا يفيق منه ، مع ماله في تاريخه من المواقف المشرفة والبطولة المتفوقة ، والأعمال الجليلة في الماضي المجيد .

وقد لا يستطيع الفرد أن يتكلم عن كل ما للحجاز من مفاخر ، ولا يتحدث عن كل من أنجبتة تربته الزكية من بناء المجد والعظمة ، دون أن يغادر منهم أحداً

لاحتياج مثل هذا العمل إلى وقت طويل ، واطلاع واسع ، ومراجع عديدة لا يتيسر لفرد ما جمعها .

فإن الحجاز على ضيق رقعته وقلة تعداد نفوسه بالنسبة إلى الأمم الكبيرة أنجب من الرجال ما لا يقل عن أي أمة من ذوات العز التالد والفخر المجيد ، فلقد مارس أبناء هذا الشعب جميع الأعمال الحيوية ، بمهارة فائقة ، في جميع الميادين التي اقتضت ظروفهم أن يمارسوها : ساسوا الشعوب ، وفصلوا في الأحكام ، وقادوا الجيوش ، وصارغوا الأبطال ، وفتحوا الحصون ، ومصروا الأمصار ، وقاموا على الملك ، ونطقوا بالحكمة والشعر ، وحملوا علم الحرية والاخاء والمساواة بين الناس ، عدا من اشتهر منهم بالزعامة والخطابة والدهاء والكياسة ، ومنهم من أعرض عن الدنيا واشتهر بالتقوى والعبادة والزهد والورع حتى صاروا المثل الأعلى للمعتدين بهم ، ومنهم من ضرب بسهم وافر في الظرف والفكاهة ، ومنهم من صار لهم القدر المعلي في الفنون الجميلة كالغناء والتوقيع على الآلات ، وفريق عاج الفلسفة وترك فيها آثاراً عرف بها وعرفت به ، وغير ذلك من الأعمال التي وقفوا في إجادتها إلى أبعد حدود التوفيق مما لم يسبق له مثيل ، واغتصبوا بذلك إعجاب العالم أجمع . كل هذا دعاني لأن أفكر في تأليف سلسلة من الأبحاث يضمها مؤلف مثل هذا ، وإن لي من العزم الأكيد ما يجعلني لا أفتر - إذا تهيأت لي الأسباب - عن مواصلة البحث ليتسنى لي أن أصدر عدة كتب تحت هذه التسمية التي سميت بها هذا الكتاب الذي هو باكورة رغبتى في هذا السبيل ، فمسي أن يكون كتابي هذا - على ما فيه من اقتضاب الكلام وعدم التوسع فيه - حافظاً يغري على البحث والتنقيب عن آثار رجالات الحجاز الأفاضل الذين أنجبتهم هذه الأمة العربية الأصيلة ، فيقدم لنا طائفة منهم في كتاب أضخم وصورة

أوضح ، فمن واجب الحجازيين اليوم وهم على أبواب نهضتهم الحديثة ، أن يتقبوا
ويبحثوا عن آثار رجالات الحجاز إحياءً لمجدهم المندثر وعزيم الضائع ليروا كيف
تموا أجدادهم تلك المسكنة العالمة وأي طريق سلكوا للوصول إلى ما وصلوا إليه ،
فيسيروا سيرتهم ويحذون حذوهم ؛ وما على هذه السلالة النبيلة المتحدرة من أولئك
الأسلاف العظام ببعيد أن يبلغوا ما بلغ أبائهم ويعيشوا كما عاشوا أعزةً كراماً ، فإن
تلك الأرواح الطاهرة التي ورثناها عن الآباء والتي تسرى في أجسامنا سرعان السكرباء
في الأسلاك ، لاتلبث إذا ما جد الجد أن تسطع بضياء تخشع له القلوب والأبصار ما

إبراهيم هاشم الفلالي

الحجاز

جبال مشمخرة ، وحرار مستقرة ، تطاول السماء بشموخها ، وتغالب الأرض برسوخها لا تؤثر فيها الهوامل ، ولا تنال منها الزلازل ، تسكتنفها دحال قائمة ، ونجاج واجمة ، ومفاوز متجهمة ، لم يفتضها زارع ، ولم يستثمرها طامع تحتضن بين أبعادها المترامية الأطراف : أدغالا ، وغابات ، نبت على أديمها الشيح ، والحزامى ، والقيصوم ، والبشام ، والنجم ، والعرعر ، والأثل ، والأذخر ، والسدر ، والحرملة ، والطرف ، والحنظل . إن جاده الغمام بقطره اخضر ، وإن كف عنه ذوى واضمحل ، زويت بين هاته الوهاد والأنجاد واحات تتفجر أجوافها بلماء النيمر ، وتسيل عيونها بالكوثر والسلسبيل ، قامت على حافاتها باسقات وأشجار تفوح أغصانها عن أعطر الأزهار ، وتنتفح أكامها عن أطيب الأثمار ، يحوم حولها الفراش والنحل ، ويختلف إليها الوابل والطل ، فتفيض الآبار ، وتجري الجداول ، وتسجع الورق ، وتصدح البلابل ، يترقق في أكنافها فطر الهواء ، ويحمد في أفيائها الإصباح والإساء ، انتشرت هنا وهناك مدن شاهقة البنيان ، أهلة بالسكان ، تعج أسواقها بالمتازين ، وشوارعها بالغادين والرائحين ، دأمة الحركة مستمرة الجلبة ، توفر فيها الأمن والرخاء ، والأنس والهناء ، ين في أجوازها الأذان ، ويتلى في مساجدها القرآن ، وترخر مدارسها بطلاب العلم والعرفان ، يحيط بهذه المدن أكواخ من اللبن ، وأخباء من الورد ، تلك هى بيوت الفلاحين ، وحلل الأعراب ، حيث لا ترى فى أفنائها إلا امرأة تغزل ، أو جواداً يصهل ، أو راعياً يحدو ، أو حملاً يعدو ، أو ظليماً يرح ، أو بهماً ترعى ، أو إبلاً ترعى أو كلباً يقمى . ثم خلاءاً ينبسط لا يحجب انبساطه سوى سفوح

الكتبان و خيوف الأودية ، ولا تجد عندها أنيساً ولا تسمع حسيساً غير أصداء تردد
من أرياح تصفر ، وسباع تزور ، وذئاب تعوى ، وغربان تنعق ، وُحمر تنهق ، يطبق
على كل ذلك أفق واسع يتنفس صبحه عن شمس تسطع ويتمخض ليله عن زهر تلمع ،
لا سحاب يحجبها ، ولا ضباب يغيبها .

« محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم »

بعث الله من الحجازيين أعظم الأنبياء شأنًا، وأجلهم خطرًا، وأكرمهم عليه، وأفضلهم عنده، ذلك هو محمد بن عبد الله .

اجتباها المولى جلت قدرته من بين شعاب مكة وصحراء الحجاز، وجبال تهامة، ليؤدى رسالته العامة إلى كافة الخلق بعد أن جرت سنته في أنبيائه بأن يبعث كل نبي إلى قومه دون غيرهم من الناس .

صدع هذا النبي المسكى بأمر ربه ودعا الناس كافة إلى الإسلام الذى رضيه الله ديننا لعباده، فلم يقصر دعوته الصريحة إلى دين الحق على رعاة الإبل من العرب، بل دعا بنفس تلك الصراحة ذوى الملك والسلطان من أكاسرة الفرس وولاة الفرنجة وقياصرة الرومان، ولقى من عنت الناس بدعوته وسخرتهم به، واضطهادهم له ما هو مسطور فى السير، ومشهور فى التاريخ، فما وهى ولا وهن بل زاده مالى من التعذيب والتشريد فى سبيل المهمة التى اضطلع بأعبائها قوة وصلابة، وجاهر بمقيده وجاهد دونها وضحى بكل راحتته وهنائها فى سبيلها . ولم يخش العرب فى نعرتها، ولا الفرس فى دولتها، ولا الروم فى صولتها . ولقد أراده قومه أن يكون ملكاً عليهم، أو زعيماً لهم، أو مثيراً فيهم، على ألا يعيب ديانتهم التى ورثوها عن آبائهم، ولا يشتم آلهتهم وأن لا يسفه أحلامهم - أو يقتلوه وجعلوا عمه أبا طالب وسيطاً بينه وبينهم، فما الخدع لخرق القول، وما آثر العافية ولا هاب الموت الزؤام، وأجاب إجابة رددتها الأجيال وصفقت لها الدهور: « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » فطأطأت

له الرؤوس إجلالاً وإكباراً، وارتد عنه غلف القلوب مخذولين أمام هذه العزيمة الجبارة يعلوهم الصغار، ويحف بهم الهوان، وعلت كلمة الحق رغم الكائدين لها والمعاندين لصاحبها، والتهمت كل ما أمامها، ممَّا لَفَّقَهُ ذُوو الضلالة من زور وبهتان وأتت عليه حتى تركته أترأ بعد عين .

وأورث الله العرب بفضل هذه الدعوة الصريحة الحققة التي ألهمت عواطفهم ، ووحدت كلمتهم ، وثبتت أفئدتهم ، وجمعت أشقتهم : سواد فارس ، وإيوان كسرى ، ومشارف الشام ، ووادي الفراعنة ؛ وتربعت لغة الكتاب الذي جاء به محمد من عند ربه على دست الدولة الإسلامية ، فوحدت لغة التخاطب بين هذه الأمم المبلبلية الألسن وأقامت تعاليم محمد العادلة الرحيمة قسطاس العدل بين الناس ، فساوت بين الصملاوك والأمير ، والغنى والفقير ، فاعتنقها الناس رغبةً فيها لا رهبةً منها وخالطت حلاوتها قلوبهم فاستعاضوا بلغاتهم لغة القرآن ، وبدياناتهم دين الرحمن .

ورفرت بفضل محمد صلى الله عليه وسلم على العالم راية الأخاء والسلام فلا مينة لجنس على جنس ، ولا تعصب للون على لون و « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .
على هذه الدعوات الخلقية المتينة أقيمت أسس الحضارة الإسلامية في مختلف الربوع والأقاليم التي وطنتها خيول المسلمين .

وكان من آثارها تشييد قصور الزهراء والجرعاء في الأندلس وإحداث مدينتي الكوفة والبصرة في عهد عمر ، ومدينة بغداد في عهد المنصور ، ومدينة القيروان في شمالي إفريقية في عهد معاوية ، وبلوغ دمشق قمتي المجد والعظمة في عهد الأمويين ؛ وغير ذلك من آثار النبوة الخالدة وعز الإسلام التالد . ويعود الفضل في كل ذلك إلى واضع حجر الأساس في هذا البناء الضخم « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وسلم .

بقيامه بتبليغ الدين الصحيح الموحي إليه به من السماء ، ذلك الدين الذي اختاره الرحمن جل وعلا قانوناً تسير عليه الأمم في معاملاتهم ، وبراساً يستضيئون به في أمور معاشهم ومعادهم ، وبما بثه صلى الله عليه وسلم من روح العزيمة والكفاح والبطولة في أتباعه السائرين على نهج دينه الخنيف .

بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانت بعثته شعلة مقدسة أنارت ظلمات الكون الدامسة وكان في بعثته أعظم منقذ للإنسانية من وبيلات كادت تودي بحياتها ، حيث استعلى ذوو العروش والتيجان وساموا الناس الخسف وطفوا وبنوا ، ولم يبق للمستضعفين في الأرض ملجأ يلجؤون إليه ، وعمت الفوضى وأندرت بالخراب ؛ فظهر صاحب الدعوة الإسلامية في الوقت المناسب ، وفرق بسيوف دعوته جنود الظلم والعسف ، وشتت عساكر الجور والطفيان فثلت تلك العروش وطوحت تلك التيجان وأقيم على أنقاضها ميزانها العادل الرحيم ، وأنت النصفة لأهل الأرض من الحكيم العليم .

ولد صلى الله عليه وسلم بمكة من أبوين كريمين عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، وآمنة بنت وهب بن زهره ، وكان مولده لإحدى عشرة ليلة خلون من ربيع الأول عام ٥٧١ م ودفن بالمدينة المنورة ، وكانت وفاته عام ٦٣٢ / ٥١٣ م صلى الله عليه وعلى آله وأرضاه عنا خير ما أرضى نبياً عن أمته .

« أبو بكر الصديق رضى الله عنه »

أول خليفة حجازى أجمع المسلمون على إسناد أمرهم إليه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فقبض على زمام هذه الأمة الإسلامية الفتية قبضة الحكيم الرشيد . ووجهها توجيهاً حميداً عاد بأحسن النتائج على مستقبل الأمة . مما دل على مقدرة أبي بكر الممتازة وكفاءته النادرة في توطيد دعائم الخلافة ، وبعد نظره في تقدير مصائر الأمور . بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لتتويج سعد بن عبادة ملكاً عليهم ، بيد أنهم وهم على وشك انعقاد الأمر فوجئوا بحضور أبي بكر يصحبه عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح وما كادت تطأ أقدامهم أرض السقيفة . حتى انقل أبو بكر من بين صاحبيه . وقام خطيباً في هذا الحشد الحاشد فقال : يا معشر الأنصار إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء واختاروا أحد هذين الرجلين - وأشار إلى عمر وأبي عبيدة - فبايعوه ، فقال له عمر : تعست أمة تبايع غيرك يا أبا بكر وأنت فيهم ثم ضرب على يده فبايعوه وازدحم الناس عليه يبأيعونه .

وارفض جمع المسلمين مغتبطين بخليفتهم ، وهكذا وفق أبو بكر للمرة الثانية بعد وفاة الرسول في تهدئة الخواطر وإرجاع السكينة إلى النفوس .

أما المرة الأولى فيخطبته التي أعاد بها للناس صوابهم عند ما مات محمد صلى الله عليه وسلم وأصاب الناس ما أصابهم من الجوع والفجعة والنهول حتى أدى الأمر بعمر أن يخترط سيفه ويهدد بالقتل كل من يقول إن محمداً قد مات ، فتدارك أبو بكر ذلك الموقف بخطبته المشهورة التي يقول فيها : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وتلى قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد

خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه
فإن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين .

فثاب للصحابة رشدهم وغلغوا الحقيقة التي لا مفر منها للأحياء ، بهذه السكينة
وبهذه العقلية التي لا تزغها الحوادث ، امتاز أبو بكر على سائر الصحابة وبنفس هذه
العقلية التي لا تتأثر بما يحيط بها من الاعتبارات السطحية، والتي ينظر بها من بعد
كيف يجب أن تسير الأحوال طبق رغباتها للمصلحة العامة . سير أبو بكر جيش
أسامة إلى البلقاء لقتال الروم بعد أن أوشك أهل الرأي أن يجمعوا على عدم توجيهه
لاحتياج الدولة الناشئة إلى هذا الجيش في محاربة المرتدين ، ومانعي الزكاة من
العرب ، فأبى الخليفة العظيم إلا تنفيذ ما كان النبي ينوي تنفيذه قبل وفاته فتظهر
فيما بعد صحة هذه النظرة ونجاح هذه الخطة المحكمة التي إنما كانت إلهاماً لمحمد
فيما قيل ثم توفيقاً لأبي بكر فيما بعد حيث أن كثيراً من العرب الذين كانوا يراودون
أنفسهم على الردة عدلوا عنها عند ما رأوا جيش أسامة هذا يذهب إلى الشام قائلين «لو
لم تكن للمسلمين قوة لما ذهب مثل هذا الجيش» .

اشتهر أبو بكر رضي الله عنه باللين وحب المسايرة ولكن صلابته وعدم تفريطه في
الحقوق والواجبات يتجليان في جوابه للصحابة ، حينما أرادوه أن ينقص في نصاب
الزكاة خشية أن يتكالب العرب عليهم إذا هو استعمل الشدة في الطلب وتعود العروبة
إلى جاهليتها الأولى بعد أن أنعم الله عليها بالإسلام ، فيقول «والله لو منعوني عقال بعير
كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لخارت بهم عليه» .

هذه الصلابة العجيبة ، في مثل ذلك الموقف الدقيق ، من وحي تلك العقلية
المتأززة ، التي تعرف كيف تضع الأشياء مواضعها .

هذه العقلية التي يتمتع بها أبو بكر في تفكيره ، والتي تكاد تكون في جميع أعمالها كأنها ملهمة من السماء ، لم تمنع أبا بكر من أن يقول في خطبته التي استهل بها عهده في أول يوم أسند إليه الحكم « إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتم في أعوجاجاً فقوموه بسيوفكم » .. منحة من السماء هذا العقل الذي أوتيته يابن أبي قحافة ..

رأى بثاقب فكره ، وبعد نظرة وحدة ذكائه وحسن تقديره لعواقب الأمور . أن محمداً صادق في رسالته ، وإن أجمع الناس على تكذيبه وأن دعوته ستنشر وتعم بالرغم من المعاندين لها والساعين في كبتها والعاملين على إخمادها وأن الناس سيدخلون في دين الله أفواجاً وإن طال اعراضهم . وأن عباد الأوثان الذين يسخر منهم أبو بكر في قرارة نفسه ويهزأ بهم وبآلهتهم مهما بلغت قوتهم لا يستطيعون أن يردوا محمداً ولا أن يقفوا في سبيل دعوته التي أمر بتبليغها ، وأن الله سيظهر دينه على الدين كله ويمحق الشرك وأهله ، هداة تفكيره السليم إلى كل ذلك ، فبادر إلى تصديق الرسول وآمن بما جاء به مقتنعاً بأن دين الإسلام هو الدين الحق الذي يجمل بمن هو في مثل تفكيره وتقديره أن يتبعه ويدين به فاطمأت له نفسه وارتاح بإيمانه ضميره ، فلازم محمداً ملازمته لظله وصدقه في كل ما أخبر به وشاركه البأساء والضراء ، هذه القوة العقلية التي يستضيء بها أبو بكر في جميع تصرفاته هي التي رفعته إلى مقام الصديقين . ولد رضى الله عنه بمكة عام ٥٧٢ م ودفن بالمدينة عام ١٥ هـ وكانت مدة خلافته سنتين ونصف ثبت في أثناءها دعائم الخلافة الإسلامية في الجزيرة العربية . وفتح خلالها مدينتي الحيرة بالعراق وبصرى بالشام وكان فتح هاتين المدينتين باكورة الفتوحات الإسلامية فيما بعد رضى الله عنه وأرضاه .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

عجيب أن أتصدى في مثل هذه العجالة للتحدث عن هذا الرجل العظيم ،
والصحابي الجليل ، والخليفة الفذ ، عمر بن الخطاب ، بمد أن لهجت بذكره السنة
الأجيال ، وسفلت هذه الشخصية العظيمة أفكار العلماء السنين الطوال يتلمسون
عظمة عمر ولا تجد مكتبة من مكتبات الشرق والغرب تخلو من عدة أسفار لا تتكلم
إلا عن عمر ، وعدل عمر ، وعظمة عمر ؛ أجل فلقد كان عمر عظيماً بكل ما تشتمل
عليه معاني العظمة وتتجلى هذه العظمة في تصرفات عمر ، وكلمات عمر ، وحركات
عمر ، وكل شيء يصدر عن عمر ، وكما كان عمر عظيماً في إسلامه كان كذلك عظيماً
في جاهليته ، يُدلل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه « اللهم أعز الإسلام
بعمر »^(١) انظر لعمر وقد أزمع الهجرة إلى المدينة يتحدى جموع قريش - في الوقت
الذي كان يهاجر إليها أصحاب محمد خلسة - « يا معشر قريش إنى لاحق بمحمد فمن
أراد أن تشككه أمه فليلقاني في بطن هذا الوادى » تعرف مبلغ اعتداد عمر بنفسه ،
وإذا علمت أن أحداً لم يجرؤ على لقاءه ، ظهر لك إلى أى حد كان يخشى من بطش
هذه الشخصية الجبارة .

واعجب ما شاء لك الإعجاب بعظمة عمر وهو يقول للنبي صلى الله عليه وسلم في
اليوم الذى أسلم فيه « أسنا على حق إن متنا أو حيننا فقيم الاختفاء ، والذى بعثك
بالحق لتخرجن » وكان المسلمون يجتمعون بدار الأرقم لأداء الصلاة مع النبي سرّاً .
فخرجوا ميممين المسجد الحرام في صفين على أحدهما عمر وعلى الآخر حمزة ،

(١) عمر بن الخطاب لابن القيم .

فكانت مفاجأة قوية هلمت لها قلوب قريش وصدموها بإسلام عمر صدمة عنيفة لم يصدموا بمثلها في حياتهم .

تمثل الرجولة الحقبة بأروع مظاهرها في شخص عمر فلقد كان رضى الله عنه يلتذ لمقاومة الأعداء ويأنف من سيء الضعف ولذلك قال لخاله « العاص بن هاشم » يوم أجاره من كفار قريش « جوارك مردود عليك »^(١) وآثر أن يضرب ويضرب في سبيل الله .

ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم إبرام صلح الحديبية جاءه عمر وقال : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل . قال بلى . قال أليس قتلانا في الجنة ، وقتلهم في النار قال بلى . قال : فعلام نعطى الدنيا في ديننا ، ولم يحكم الله بيننا وبينهم . قال يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً .

تولى عمر أمر المسلمين بعهد من أبي بكر ، فامتد نفوذ المدينة في عهده إلى حدود الصين ، فقد افتتحت جنود عمر : فارس وإيران وبلخ وفرغانة وبلاد الديلم وافتتح العراق كله وكور الشام كلها و « وطئت خيله أرض الرى وافتتحت عامتها »^(٢) وفتحت جنوده مصر العظيمة وربة وطربلس ، وحملت إليه الغنائم والأسلاب وسيقت إليه الأسرى والسبايا ، وكان مما حمل إليه تاج كسرى وبساطه المرصعان بالدر والجوهر ، وبلغت المدينة في عصره أوج عزاها وشاهدت أسواقها بطارقة الروم ، ودهاقنة الفرس يباعون فيها بأبخس الأثمان .

(١) و (٢) راجع عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

كان عمر حازماً شديداً الحزم ، لذلك خشى منه الناس عند ما عهد أبو بكر إليه بالخلافة حتى قال بعضهم « استخلف علينا فظاً غليظاً »^(١) ولكن عمر أخلف ظن الناس فيه فكان وهو خليفة أسفق برعيته من الأب الرحيم : عزل خالد ابن الوليد عن قيادة جيش الشام وقال « إني لم أعزل خالداً عن سخط ولا عن خيانة ، ولكن عزلته شفقة على النفوس من سرعة هجماته وشدة صدماته »^(٢) وكان عمر يمشى في الأسواق ويطوف الطرقات ويمس بالليل ويقضى بين الناس في قبائلهم ويعلمهم في أمماتهم « وكان أين الناس فيما ينبغي وأقواهم على أمرهم »^(٣) يقول الأوزاعي ان عمر خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر ودخل بيتاً ثم خرج فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك فقالت انه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني لما يصلحني ويخرج عني الأذى^(٤) هكذا كان عمر العظيم لا يأنف من أن يميظ الأذى بيده عن عجوز مقعدة عمياء ويحمل بنفسه الزاد والماء إليها ، ويأتيها بما يصلحها في سواد الليل حينما يأوى الناس إلى مضاجعهم طلباً للراحة ، وهو من علمت كيف يمضي نهاره في تصريف أمور الدولة ، وواجبات الحكومة المشرف عليها والتي يضطلع بمسئوليتها العظمى الملقاة على عاتقه .

كان عمر على سعة مملكته المترامية الأطراف وأكثر ما أفاء الله عليه من النعم خشوشنا في مأكله ومشربه وملبسه زاهداً في سلطانه بقدر قيامه عليه ، يأكل من

(١) عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

(٢) دروس التاريخ الإسلامي لمحي الدين الحياط .

(٣) عمر بن الخطاب لابن الجوزي أيضاً .

(٤) عمر بن الخطاب لابن الجوزي بقليل من التصرف .

بقايا طعام الفقراء ويلبس الخشن من الثياب وينام على الرمل والحصياء ويتحمل مشقة السير على قدميه في المسافات البعيدة إذا اقتضاه ذلك ومع كل هذا فقد كان إذا انفرد بنفسه يحاسبها على التقير والتقطير ويبكي بكاء الشكلى خوفاً من الحساب في اليوم العسير .

وكان إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار ألا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يفلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم أشهد .

وما كان عمر في زهده ومحافظته على دينه وشدة تمسكه به جامداً في عقليته ولا رجعياً في أفكاره بل كان يتمشى مع كل ظرف بما يناسبه وكان يقول : لا تجبروا أبناءكم على تعلم آدابكم فإن لهم زماناً غير زمانكم : ولم يتمتع هو نفسه من أن يقتبس من حضارتى الفرس والرومان التي أورثه الله منازلهم وملكهم أرضهم ، بعض النظم الصالحة لدولته فدوّن الدواوين ، ونظم بيت مال المسلمين ، فوضع الخراج على الأرض والجزية على أهل الذمة ، وقرر المرتبات لذوى الاستحقاق ، ومصر الأمصار وأزلها العرب وأحدث وظيفة القضاء وعين فيها رجالاً أكفاء اشتهروا بالزهد والنزاهة ، وجند الأجناد وأجرى عليهم الأرزاق وسمى بكل وسيلة لاستثمار الأرض فمسح السواد وشق الترع وأقام الجسور وأوصل الماء إلى الأرض البور وبالجملة فلقد وجه عنايته للزراعة والصناعة ، وحث على طلب العلم ، وكان يحب السعى والحركة ويكره التواكل ويمقت أهله : دخل ذات يوم المسجد فوجد رجلاً به فقال له لم تعمل

لكسب قوتك فقال صرفت نفسي للعبادة : قال قم فاخرج لا تبت ديننا أمانك الله
وكان رضى الله عنه ذا خبرة واسعة في الأمور المالية فقد خطب الناس في الجابية
يوماً فقال « من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ومن أراد أن يسأل
عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت
ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى خازناً وقاسماً » (١) .

وهو واضح التاريخ الهجرى للمسلمين ، وهو أول خليفة حجازى لقب بأمر المؤمنين ،
مات عمر مقتولاً بيد المجرم الأثيم « أبى لؤلؤة » طعنه غيلة وهو يصلى الفجر بخنجر
مسموم ذى نصلين نصابه فى وسطه وطمع معه أحد عشر رجلاً ، وانتحر الشقى بخنجره
وقال عمر حينما أخبر بأن أبى لؤلؤة هو الذى قتله « الحمد لله الذى قتلى من لا يحاجى
عند الله بصلاة صلاحها » .

ولد عمر قبل « الفجار » بأربع سنين وقتل عام ٢٤ هـ أبوه الخطاب ابن نفيل
ابن عبد العزى وأمه خنثمة بنت هاشم بن المغيرة وكان آخر ما أوصى به قوله
« أوصيكم بالمهاجرين فإن الناس سيكثرون ويقولون . وأوصيكم بالأنصار فإنهم شعب
الإسلام الذى لجأ إليه وأوصيكم بالاعراب فإنهم أصلكم ومادتكم . وأوصيكم
بأهل ذمتكم فإنهم عهد بئكم ورزق عيالكم ، قوموا عني » .

يا للعظمة التى تتفجر من نواحيك فى جميع أطوارك يا عمر : حقاً إنك لمظلم
أنت حتى فى سكرات الموت . فلم تنسك حشرة الروح أن توصى برعيتك حتى لم
تدع طائفة ممن يخضع لسلطانك إلا أوصيت به خيراً . نعم قرير العين فى قبرك فإن
الناس لن ينسوك وإن طال بك العهد .

(١) عمر بن الخطاب لابن الجوزية .

« عثمان بن عفان رضی الله عنه ».

لما أحس عمر بن الخطاب بالموت من أثر الطعنة أداه اجتهاده إلى أن يجعل أمر الخلافة الإسلامية شورى بين ستة أشخاص ثقتهم بهم ورضاء الجمهور عنهم وكفائتهم في تسيير دفة الدولة إذا آل أمرها لأحدهم ، ولم يعهد بها إلى أحد منهم وقال إنى أكره أن أتحمّلها حياً وميتاً كما أنه لم يعهد بها إلى أحد من أبنائه ، بل قال لما أشير عليه بذلك (حسب آل الخطاب أن يحاسب واحد منهم عن الأمة) .

وهؤلاء الستة الذين رشحهم عمر لهذا الأمر الخطير هم : عثمان ، وعلى ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن أبي وقاص .

عقد هؤلاء الستة جلسة سريعة في بيت المسور بن مخرمة ، وتفاوضوا فيمن يلي الخلافة منهم وقرّ رأيهم على أن يتنازل أحدهم عن حقوقه في الخلافة بشرط أن يرتضوه حكماً ينزلون على رأيه ؛ فسمحت نفس بن عوف بذلك واتفق مع سعد والزبير وطلحة بمسئ ذلك أن يتركوا الخلافة بين على وعثمان ، فحكم ابن عوف بها لعثمان فبايعه وأعلن ذلك في الجمهور فبايعه الناس وبعد أن تم أمر البيعة لعثمان ، صعد المنبر ليخطب فارتج عليه فقال « مايزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن ، سيجعل الله بعد عسر يسراً ، وبعد عي بياناً ، وأتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال » ثم نزل ، وما لبث عثمان أن جلس على كرسی الخلافة حتى انتقضت عليه أرمينيا فسير إليها جيشاً أخضعها ، وافتتح الجيش في غزوته عدة مدن وحصون وقاقل أكراد أبو شهبان وظفر بهم ، وإذ ذاك وجه عثمان عنايته لتقوية الجيش ، فانتخب القواد

الأكفاء له ، وولى على بعض البلاد النائية عنه بعضاً من أقاربه الذين يعتقدون إخلاصهم
وتفانيهم في خدمة الدولة حتى إذا اطمأن لهذه السياسة التي رضىها لنفسه وللصالح العام
تطلعت نفسه للفتح والغزو ، فأصدر أمره لمعاوية بن أبي سفيان عامله على الشام أن
يغزو بلاد الروم ، وأمر عبد الله بن أبي سرح عامله على مصر أن يزحف على شمال
إفريقية وأمه بجيش تحت قيادة عبد الله بن الزبير ، وأمر عبد الله بن نافع أن يغزو
الأندلس ، وأمر عبد الله بن عامر أن يتولى قيادة الجيش في فارس وعهد إليه أن يتمم
فتحها ، ويقضى على دولة الأكاسرة هناك .

وكان هؤلاء القواد من زهرة الشيبية الحجازية في ذلك الوقت ، فثارت الحمية في
رؤوسهم ، وغلى دم الشباب في شرايينهم ، واندفعوا متحمسين يرتلون آيات الخلود
فيسطرها لهم الحجاز على صفحات تاريخه الذهبي بأحرف من نور .

كل ذلك بفضل تلك الإدارة الرشيدة ، والتدبير المحكم الذي دبره ذلك الشيخ
الوقور ، والخليفة الجليل عثمان بن عفان ، في تأمير هؤلاء الشبان المتعطشة نفوسهم
إلى المجد ، المتطلعة أرواحهم إلى السمو والخلود ، وتوجههم على رؤوس هذه الجيوش
الجرارة إلى مختلف الميادين الحربية في أصقاع الأرض .

ولقد شعروا بمبلغ ثقة الخليفة بهم وقدروا حسن ظنه فيهم ؛ فابدى كل قائدهم
من البسالة في ميدانه ما تعجز عن وصفه الأقلام .

بلغ الإقدام بمعاوية أن افتتح عدة حصون ومدن من بلاد الروم حتى احتل
عمورية وحاصر القسطنطينية .

وبلغت الجرأة بعبد الله بن أبي سرح وسميه ابن الزبير أن يفتتحا « سبيطلة » عاصمة
إفريقية في ذلك الوقت ، وقتل ابن الزبير ملكها « جرجير » من قبل هرقل .

وتحمس ابن نافع فافتتح من البلاد الأندلسية بقدر ما افتتح قبريناه من شمال افريقية
وتوغل ابن عامر في أرض فارس حتى امتلكها كلها وطرد يزدجرد آخر ملوك الفرس
منها ، وبذلك قضى على دولة الأكامرة فيها كما عهد إليه عثمان .

اغتبط خليفة المسلمين بهذه الانتصارات الباهرة التي أحرزها قواده في مختلف
الميادين واتسعت بذلك رقعة ملكه ، وجبى إلى المدينة المنورة خراج الأرض من كافة
الأهواء وامتلات خزائن الدولة بالأموال ، ونعم الناس في مجبوحه الأمن والرخاء ،
وأراد ربك أن يُسطر في تاريخ المجد الحجازى فوزاً جديداً على يدى هذا الخليفة
الطيب النفس ؛ وكأن المقادير أرادت أن تملئ على الأمم درساً تشهد به على تفوق
العنصر الحجازى وبطولته فى البر والبحر ، وألهم الله الخليفة بأن يسمح لمعاوية بن
أبى سفيان بركوب البحر لفتح قبرص ، وبذلك تأسس أول أسطول حربى للدولة
الإسلامية فى عهد خلفائها الحجازيين .

سار هذا الأسطول الحربى بمخر عباب البحر ، وكانت با كورة أعماله استيلاءه على
قبرص وخفوق العلم الحجازى على جزر البحر الأبيض المتوسط ، وقد شهدت مياه هذا
البحر كيف انتصر الأسطول الحجازى الجبار على أسطول الروم فى وقعة الصوارى المشهورة
بقرب الإسكندرية وغنم أسطول عثمان فى هذه الواقعة أسطول الروم وجرح قائده قسطنطين
ابن هرقل ؛ أما الأسطول الحجازى فقد كان تحت قيادة البطلين الحجازيين معاوية وابن أبى سرح .

لم يرق فى أعين الذين يحلو لهم الاصطياذ فى الماء العسكر والذين لا يخلو منهم زمان
ولا تنجو منهم أمة ، أن يروا هذه الدولة الإسلامية الفتية تبلغ هذا المبلغ من الضخامة

والإتساع ويمتد سلطانها من حدود الصين إلى أطراف أوروبا، ولا أن يؤول أمر هذه الأمم والشعوب المتعددة من مختلف الأجناس والألوان إلى أيدي رعاة الإبل والشاء ولا أن يحمل خراج هذه الأرض الحصبة إلى تلك العاصمة النائية في بلاد العرب ؛ فراحوا يكيّدون لها ويدسون الدسائس لقلبها وينفخون كالسوس لهدم هذا البناء الضخم الذي شيّده عزائم أبناء هذا الشعب الحجازي ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ولم يراعوا حرمة تلك الدماء الزكية التي أريقَت في سبيل نشر الحضارة الإسلامية، وتلك الأرواح الطاهرة التي أزهرت في سبيل إنقاذ العالم من نير النذل والاستعباد ولم يقدرُوا عمل هذا الشعب النبيل الذي رمى بفلذات أكبادِه بين برائن القوة الغاشمة والسلطة الظالمة لانتشال البشر من فظائع الفرس، وجبروت الرومان اللتين أنذرتنا بالويل والثبور وكادتَا توديان بحياة الإنسانية قبل انتهاء أجلها. نعم فإنهم لم يراعوا كل ذلك بل جعلوا لأطباعهم الدنيئة المقام الأول من الاعتبار، واندفعوا يحدوهم الشر لغرس بذور الفتنة والشقاق بين أبناء الأمة الواحدة، حتى كانت تلك الثورة المشؤومة التي ابتدأت بقتل عثمان، وانتهت فيما بعد بقتل علي.

أودت هذه الثورة الجاحمة بحياة الخليفة الصالح عثمان بن عفان، وأدت إلى انقسام الأمة إلى شيع وأحزاب يفاخر بعضهم بعضاً، ولا نفالي إذا قلنا أنه لولا ذلك لفرض الشعب الحجازي سيادته على الكرة الأرضية بأهلها وأدى رسالته كاملة للناس كافة. قتل الثوار الخليفة في داره بالمدينة المنورة وهو ممسك بمصحفه يتلو فيه القرآن الكريم، وقد مضى على خلافته اثنا عشر عاماً. وكان آخر ماتفوه به وهو يتشخّط في دمه « اللهم اجمع هذه الأمة »^(١) رضى الله عنه وأرضاه.

(١) إحياء علوم الدين للغزالي .

« على بن أبي طالب رضی الله عنه »

بعد مقتل عثمان بن عفان اجتمع المهاجرون والأنصار وانضم إليهم الثوار ، وذهبوا جميعاً إلى علي بن أبي طالب في منزله ، وقالوا له إن هذا الرجل - يعني عثمان - قد قتل ، ولا بد للناس من خليفة ، ولا نعلم أحداً أحقُّ بها « الخلافة » منك ؛ فقال لهم لا تريدوني فأني لكم وزير خير لكم مني أمير ؛ فقالوا والله لانعلم أحداً أحقُّ بها منك ، ولم يزالوا يحاولونه على قبول الخلافة ويحاولهم على رفضها ثلاثة أيام أو خمسة وبعد مدافعة طويلة وامتناع كثير قال لهم فإن أبيتُم عليّ فإن بيعتي لاتكون سرّاً ولكن اتوا المسجد فن شاء أن يبايعني بايعني ، وخرج إلى المسجد فبايعه الناس ^(١) .

ولكن بذور الفتنة التي أصلها عبد الله بن سبأ في قلوب أبناء الأمة الواحدة بدأت تنمو وترعرع ، وأصبحت الشام تحاصم الحجاز ، ودمشق تنازع المدينة في جر الخلافة الإسلامية إليها ؛ ومن غامض حكمة الله جل وعلا ، أن يتصدى لهذه الخصومة رجل من صميم أهل الحجاز « هو معاوية بن أبي سفيان » ويتمسك الحجاز بحقوقه مقتنعاً بوجهة نظره ، وتلج الشام في النزاع ، وتشن هذه المنازعات حرباً ضروساً في داخل المملكة الإسلامية ويزيد الأمر ضعفاً على اباله انشقاق الجبهة الحجازية إلى قسمين متناحرين ^(٢) فيتفاقم الشر ويزيد البلاء ، ويطل شبح الموت على

(١) راجع تاريخ الخميس ج ٢

(٢) أعني بانقسام الجبهة الحجازية إلى حزبين متناحرين خروج السيدة عائشة أم المؤمنين

ومعها طلحة والزبير على الامام علي وكلهم حجازيون .

هذه الأمة من شرفته الرهيبة ويحصده بمنجله المربع الأرواح حصداً ، فتهلع له القلوب
وتصطك من هوله الأسنان^(١) .

ولكن علياً كان شجاعاً مغواراً لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً ، فهو لا يهرب
الموت ولا يهاب الغمرات ؛ وكان الظروف أرادت أن تحتبره فهو لا ينتهي من حرب
إلا لتبدأه أخرى ولا يرفض من ميدان إلا ليخوض غيره^(٢) ، فكان يقابل كل
تلك الأحوال بمراس ثابت ، وازن مهيب ، وإقدام رائع .

وكان مما امتاز به على رضى الله عنه مهارته الفائقة وخبرته التامة بأمور المصارعة
فقد كان له درع لا ظهر لها ، ف قيل له ألا تخشى أن تؤتى من قِبَل ظهرك ، فقال إذا
مكنت عدوى من ظهري لا أبقى الله عليه إن أبقى على ؛ وكان قائداً حربياً عظيماً قاد
كثيراً من الجيوش وأوردها ساحات النصر والشرف ، ولم يُعرف عنه أنه انهزم في
جيش هو قائده .

وكان على عالى الهمة عزيز النفس ، ومن أقواله الخالدة فى ذلك « الناس من
خوف الذل فى ذل » ، لم تمنعه كثرة حروبه وانهماكه فى تدبير أمرها من أن يجلس
إلى رعيته ، ويستمتع لشكاياتهم ، ويقضى بينهم ، ويواسى ضعفاءهم ، ويعود مرضاهم ،

(١) يقال إن عدد القتلى فى وقعة الجمل التى بين عائشة رضى الله عنها وعلى بلغ عشرين ألفاً وقطعت
على خنظام الجمل سبعون بدا وقتل فى وقعة صفين بين على ومعاوية ستون ألفاً راجع تاريخ الخميس ج ٢
(٢) بعد وقعة الجمل وصفين اعترفته حروب الخوارج وكان بينه وبينهم وقائع تشيب لهولها والودان

ويعشى في جنائزهم ؛ وكان من أبرز صفاته الصراحة في كل أقواله والإخلاص في كل أعماله ، زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة مقيماً للحدود ، لا يخشى في الله لومة لائم ، كثير الصمت ، دائم الإطراق ، وإذا تكلم نطق بالحكمة وفصل الخطاب . واستمع لضرار بن حمزة الكنانى وهو يصف علياً : كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ؛ وكان والله غزير الدمة ، طويل الفكرة يقرب كفه ، ويعاتب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ؛ وكان والله يجيبنا إذا سألناه ، ويأثينا إذا دعونا ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لانكلمه هيمه له ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد الله لقد رأيت به وهو في بعض موافقه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتمامل تملل الخائف ، ويبكى بكاء الحزين فكأنى الآن أسمعهم يقول يادنيا إلى تعرضت أم إلى تشوقت هيهاث هيهاث غررى غيرى لقد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ووحشة الطريق (١) .

يا لله ما أبلغ الواصف وما أجدد الموصوف وقد اجتمع للإمام على كرم الله وجهه بجانب كل هذا ذلاقة اللسان ، وفصاحة البيان ، وحضور البديهة ، وسلامة المنطق لا يسأل عن مسألة إلا انبرى لحلها حلاً موفقاً لا يختلف فيه اثنان (٢) . سئل مرة عن

(١) زهر الآداب ج ١

(٢) زهر الآداب

مسألة فدخل مبادراً ثم خرج في جذاء ورداء وهو يبتسم ، فقبل له يا أمير المؤمنين
كنت إذا سئلت عن مسألة كنت فيها كالسكة المحماة فقال إني حاقن ولا رأى لحاقن
ثم أنشأ يقول :

إذا المشكلات تصدين لي	كشفت حقائقها بالنظر
وإن برقت في تخيل الصواب	عمياء لا يجتليها الذكر
مقنعة بأمور الغيوب	وضعت عليها صحيح الفكر
لساناً كشتشقة الأرحبي	أو كالحسام اليماني الذكر
وقلباً إذا استنطقته الفنون	أمر عليها بواهي الدرر
ولست بأمة في الرجال	أسائل من ذا وذا ما الخبر
ولكنني ذرب الأصفرين	أبين مع مضي ما غير

عالج الأحداث التي اعتورت خلافته بحكمة ما بعدها حكمة ، ولكن قاتل الله
الشقاق فإنه إذا استحك في النفوس ضاع فيه إصلاح الحكيم ، فقد كثر المخرج في
خلافته حتى أدى ذلك إلى قتله ، اغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادي وضربه بسيف
مسموم وهو يوقظ الناس لصلاة الفجر عام ٤٠ هـ فكانت مدة خلافته ست سنين
وعمره ٦٣ سنة ودفن بالكوفة كرم الله وجهه .

« الحسن بن علي رضي الله عنه »

لو تمثل النبل وحب السلام في شخص لما عدا شخص الحسن بن علي بن أبي طالب ولو كان الآن عائشاً في هذا القرن لكان أول من وجهت إليه جائزة نوبل للسلام ولما أبقى شيئاً من الفخر لرجال السلام الدولي المعروفين من أقطاب السياسة العالمية من أمثال « سترزمان » و « بريان » و « ولسن » .

قتل الإمام علي كرم الله وجهه ، فبايع الناس ابنه الحسن بالخلافة ، وكان الجند يحبونه محبة شديدة ، ويتفانون في خدمته ابتغاء مرضاته ، فبايعه منهم أربعون ألفاً أو يزيدون على الموت دونه ، وأشاروا عليه أن يسير بهم إلى الشام فيضمها لحوزته . فلما علم معاوية بن أبي سفيان بذلك خرج إليه بجنود الشام ليصده عنها ولما تقارب الجيشان رأى الحسن رضي الله عنه « أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى »^(١) فضن بدماء المسلمين أن تسفك على مذابح الأطباع وبعث إلى معاوية بتنازله عن الخلافة له .

لم يتنازل الحسن عن ذلّة في نفسه ، ولا عن قلة في جنده ، ولا عن شك في إخلاص رجاله وقواده له ؛ يقول ابن العريف كنا في مقدمة الحسن على اثني عشر ألفاً مستميتين تقطر سيوفنا من الجذ والحرص على قتال أهل الشام فلما جاءنا صلح الحسن كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ والحزن » .

وقال الحسن حينما ليم على تنازله هذا « كرهت أن أقتلكم على الملك » ، وتحدث

(١) تاريخ الخميس ج ٢

مرة فقال « كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالت ومحاربون من حاربت
وتركتها ابتغاء وجه الله وحقق دماء المسلمين . »

لقد ضرب الحسن بتنازله هذا أعلى مثل عرفه التاريخ في التضحية بالمطامع الذاتية
لنشر مبادئ الأمن والسلام بين الناس فكان أعظم داعية من دعاة السلام في العالم
كله ، إن لم يكن أولهم وسيدهم ، وبذلك أضاف الحجاز إلى صحائف مجده صفحة
بيضاء ناصعة نقية وفاز في حمل راية السلام فوزاً لا يقل عن فوزه في حمل راية الحروب
والفتوح وكان في كليهما يسعى لأسمى الغايات وأنبئ الأغراض ، فأين دعاة السلام
اليوم من مثل هذا؟؟

مات الحسن بالمدينة المنورة - بعد أن أدى واجبه في الحياة وقام بدوره الإنساني
العظيم - قرير العين بما وفق إليه في حياته هانىء النفس بما أجره الله على يده المباركة
من درء الفتن وحقق الدماء واتحاد الكلمة ، وبديهى أن يكون موت شاب هذه
أعماله خسارة عظيمة ، فإن الأجيال ضئيلة ، شديدة الضن بأن ترينا أمثاله إلا نادراً
فلا غرابة إذا رأينا لوفاته رنة أسى وحزن عميقين شملت العالم الإسلامى من أقصاه إلى
أدناه ، ولا نكران إذا جزعت النفوس لنعيه جزعاً شديداً فلقد أسف المجتمع على فقد
وشكت الأحياء من فراقه وشيع جثمانه تشييعاً يليق بمكانته ويتكافأ مع ما أسداه من
يد بيضاء خبير الإسلام والعروبة ، ورثاه الشعراء بقر قصائدهم وتبارى الفصحاء في
تأبينه بدرر أقوالهم ، وقد أدخله في قبره شقيقه الحسين بن علي وأخوه لأبيه محمد بن
الحنفية وابن عم أبيه عبد الله بن العباس رضى الله عنهم أجمعين ثم وقف محمد علي قبره
وقد اغرورقت عيناه وأبته بهذه الكلمة البليغة فقال :

« رحمك الله أبا محمد فلئن عزت حياتك ، فلقد هدت وفاتك ولنعم الروح روح
تضمينه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمينه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمينه لحبك
وكيف لاتكون كذلك وأنت سليل الهدى وخامس أصحاب الكسا ، وخلف أهل
التقى ، جدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك
جعفر الطيار في جنة المأوى ، وغذتك أ كف الحق ، وريت في حجر الإسلام ،
ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حيا وميتا ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك إنها
غير شاكّة أن قد خير لك ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة فعليك يا أبا محمد
منا السلام » وقام رجل من ولد أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قبره فقال :
« إن أقدامكم قد نقلت وإن أعناقكم قد حملت إلى هذا القبر وليا من أولياء الله يبشر
نبي الله بمقدمه ، وتفتح أبواب السماء لروحه وتبهج الجور العين بلقائه ويأنس به سادة
أهل الجنة من أمته ويوحش أهل الحجا والدين فقد رحمة الله عليه ، وعنده تحسب
المصيبة »

هذا قليل من كثير مما قيل في تأيين رجل السلام ومثال النبل وصديق الإنسانية
« الحسن بن علي بن أبي طالب » رضى الله عنه وخلد ذكراه.

معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه

هدم غليان الثورة التي اشتعل أوارها في داخل المملكة الإسلامية زهاء سبعة أعوام متتامة: على يد صديق الإنسانية ورجل السلام «الحسن بن علي» وصفي الجو للداهية العظيم معاوية بن أبي سفيان، فقبض على أزمة الأمور بيد من حديد مستعملا دهاءه وحنكته في استمالة قلوب الرعية إليه. فاستمال زياد بن أبيه وأحقه بنسبه وولاه على خراسان وسجستان والبحرين والكوفة والبصرة وعمان. وكان زياد هذا من أهل الكياسة والحزم حتى قيل فيه لو كان أبو هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه، وكان عاملا للإمام علي على فارس - فهبت دعائم الملك لمعاوية في تلك الجهات وأصلح معاوية شؤونه فنظم البريد وأحدث ديوان الخاتم واتخذ مقصورة للصلاة حتى إذا استقامت له الأمور الداخلية جند جنداً وبعثه إلى شمال أفريقيا للتوسع بفتحها ونشر الإسلام في ربوعها فافتتح بلاداً كثيرة وأدخلها تحت حكم الإسلام وبني مدينة القيروان وأزها جند أفريقيا.

وكان لمعاوية رضى الله عنه شغف عظيم في تعزيز القوات البحرية فأولاه جانباً عظيماً من عنايته. ونشط في تقوية الأسطول الإسلامي وتضخيمه حتى بلغ في عهده ألفاً وسبعمائة قطعة قذف بها في وجه النغور والجزر الرومية فاحتل كثيراً منها.

يتمثل الطموح والدهاء الحجازيان في شخص معاوية فقد بلغ به الطموح أن لا يقتصر هذا الأمر عليه، وأن لا يقلت هذا الملك العريض من أيدي أسرته إذا هو

مات . فأقدم على أخذ البيعة لابنه يزيد بالملك من بعده . وهو عالم أنه سيلعب بالنار
لخطورة هذا المطلب ولصعوبة تحقيق هذه الأمنية في ذلك الوقت فعملية ذلك الجليل
وحريةهم تنكران ذلك ولا تقره وتقاومه أشد مقاومة لمخالفته ما تواطأ عليه الناس مما
ألقوه من خلفائهم الراشدين . فإنهم لم يروا أحداً منهم عهد بالأمر إلى ابنه أو إلى أحد
أقاربه بل وجدوهم يتحرجون أن يعينوا واحداً بيمينه للخلافة - كما فعل عمر -
ويتركون أمر الناس شورى بينهم يولون عليهم من يرتضونه منهم ولكن قوة إرادة
معاوية وطموحه الذي لا يقف عنه حد ، ودهاؤه الذي لا يجارى ، تغلبت كل هذه
الصفات التي يمتاز بها معاوية على كل اعتبار . فظهر معاوية الداهية العتيد في مظهره
الرائع بأساليبه التي ابتكرها لتجنيد ما تدعوه إليه نفسه بين الناس ، وحمل الجماهير
على أتباعه فيما يريد وإبراز فكرته وتحقيقها كما يشاء : فجرد السيف حيث لا ينفع إلا
السيف ، وبذل الأموال حيث لا يصلح إلا المال ، واستعمل جنود العسل التي كان
يقول عنها - إن لله جنوداً من عسل - فأدت إليه خدمات جديرة بتقديره . وسخر
أسنة الفصحاء لغايته ، وسحر الأسماع ببيانه ، ووسع المواليين له بحمله . وأرهب
المعارضين ببطشه . فإذا الناس بجانبه والزعماء من خلفه . والجماهير ببابه تهتف بحياة
ولي العهد يزيد بن معاوية ، وتنادى بتأييده . ويتغنى الشعراء في مدحه وقرت بذلك
عينه وأثلج فؤاده ، بيد أن أربعة زعماء أعياء أمرهم ولم تطلهم سهامه فأقض ذلك
بعض الشيء مضجعه حتى إذا حانت وفاته ، أوصى ابنه بهذه الوصية السياسية العجيبة
« إني مهدت لك الأمور ، فأكرم أهل الحجاز وإن سألك أهل العراق عزل عامل كل
يوم فافعل ، واجعل أهل الشام بطانتك ولا أخاف عليك إلا أربعة : فأما ابن أبي بكر

فرجل كبير تهابه العرب اليوم أو غدا ، وأما ابن عمر فقد غلب عليه الورع ، وأما
الحسين فله قرابة فإن ظفرت به فاصفح عنه ، وأما ابن الزبير فإن ظفرت به فقطعه
إرباً إرباً » وبذلك كان معاوية أول من استن توريث الملك للأبناء في الإسلام
بفضل هذا الخليفة الحجازي - أو إن شئت فسمه الملك الحجازي - تأسست دولة
الأمويين ونالت الشام بفضل خلفائهم من الفخر والسؤدد ما هو مقروء ومسطور
في صحف التاريخ : مات معاوية سنة ٦٠ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة ملكه زهاء عشرين
سنة رحمه الله ورضي عنه .

زعماء الحرية

الحسين بن علي عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن أبي بكر عبد الله بن عمر وهذا أحد الميادين التي خرج منها الحجاز مرفوع الرأس موفور الكرامة.. لما مات معاوية ، وتولى الأمر بعده ابنه يزيد : امتنع هؤلاء الأربعة الذين ذكرهم معاوية في وصيته ، من الدخول فيما دخل فيه أهل الشام . وأبو الأذعان ليزيد ونقموا عليه تهتكه وفجوره : دون أن يخشوا من سيف يزيد الذي أطاح الأعناق وكبت الضمائر ، وكم الأفواه ، وكان الحسين أعظم الزعماء خطرا وأحبهم إلى قلوب الناس من زملائه لأنه من بيت النبوة . فبعث إليه العراقيون يشكون من عتو يزيد وظلم عماله ويدعونه لإيقادهم منه : فأرسل إليهم مسلم بن عقيل ليستوثق له منهم إذا هو قام لنصرتهم فعاهده ثلاثون ألفاً على القيام معه حتى الموت في سبيل التخلص من الحكم الزيدي . فلما وافاه خبر ما تم على يد عقيل وجاءته كتب عطاء العراق . ووجهائه يطلبونه أن يسرع بالسفر إليهم : ركب من مكة قاصدا العراق . فأحدث ركوبه قلقاً شديدا عند يزيد وخشي من انهيار عرشه على يدي هذا الزعيم الذي يعرف أن رعيته تحبه وترى حبه جزءا من دينها فعمد إلى القوة في إخماد هذه الحركة قبل أن يستفحل أمرها - وهذا ما يعمد إليه ذوو السلطة في كل زمان - وبعث قوة كبيرة إلى العراق على رأس عبد الله بن زياد . خالت بين الحسين وبين أهل العراق . وقبض ابن زياد على بضعة نفر من أحرار العراقيين وصلبهم ، وقتل ابن عقيل وبعث جيشا محاصرة الحسين والتشديد عليه . والحيلولة بينه وبين العراقيين . فلم يمكنوهم من الخروج إليه ولم يمكنوا الحسين

من الوصول إليهم ، وكان أن حوَّص الحسين في واد مقفر وليس معه إلا نسائه وأبنائه وأبناء أخيه ، وأبناء مسلم بن عقيل الذي فتك به ابن زياد ؛ وقد امتنعوا عن الرجوع حتى يأخذوا بئار أبيهم أو يموتوا .

فلما أحس الحسين بالخطر الذي يكتنفه من جميع جهاته ، وليس لديه ما يدفعه به طلب من رئيس القوة المحاصرة أن يختار إحدى ثلاث (إما أن يسمح له بالعودة إلى الحجاز ، أو يتركه يذهب إلى الثغور ، فيصد عنها غارات الأتراك ، أو يدعه يقابل يزيد) فلم يمكنه رئيس القوة إلى شيء من ذلك وقال له : « إننا نريد محاربتك »

ليس للحسين وهو بين نسائه وأبنائه - وقد حيل بينه وبين أنصاره وشيعته - جند يعتمد عليه في صد هذه القوة المحاصرة ، قوة العدو المتعسف المتجبر ، المتعطش لسفك دمه ودم من معه ، وهو إذ يفقد المعين والنصير لا يراه بحين أو يخو أو يتزلف إلى قائد جيش يزيد أو يعطيه الدَّيْمية من نفسه ، ولكنه يربنا من نفسه قوة تخشع لها القلوب التي في الصدور ، تلك هي قوة إيمانه بالله ومبلغ ثقته بنفسه وبأهل بيته ، فيعبيء من معه - وفيهم من لم يبلغ الحلم - ولم يتجاوزوا السبعين ، يعبيء هذا النفر القليل للملاقاة ذلك الجيش العرمرم . وهو لا يبالي ماذا سيلقى ، ولكنه آمن بشيء واحد هو الثبات على المبدأ والقتال دون العقيدة والدفاع عن الكرامة والذب عن الحوزة ، ولو تألب عليه أهل الأرض ، وقتلهم قتال من لا ملجأ له بعد الله إلا حد سيفه ، وقد أبدى هو وأهل بيته من البسالة ما جعل الروح والفرع يدب إلى قائد جيش يزيد ، لأنه رأى الحسين وأهل بيته يحملون على جيشه ، فإذا هم كالشعلة التي لا تأتي على شيء إلا أكلته ، راعه ما رأى وخشى أن تدور الدائرة عليه وعلى رجاله ، فصاح بجيشه أن استعينوا على قتال هؤلاء الأحرار بالعطش

وحولوا بينهم وبين الماء، فحالوا.. وقتلهم الحسين حتى بلغه ولكن بعد أن تساقط فتياه
قتلي الواحد تلو الآخر وما ان بلغ الماء بمفرده حتى اغترف منه بدرقته وأسرع إلى
خيمة الحریم ليطفيء وجيج ظمأ الأطفال الذين أزعجوه بشهيقهم من شدة العطش ،
فماجله أحد الأندال قبل أن يصل إلى الخيمة بسهم فرى به صفحة خده وأثبتته في
لسانه فنزف الدم بشدة حتى اختلط بالماء الذي يحمله ، ولم يفت كل ذلك في عضده ،
بل رفع يده ليمتزع السهم من فيه وما أن همّ بذلك حتى تكاثر عليهم الأعداء
واغتتموا فرصة انشغاله بانتزاع السهم وتناوشوه بسيوفهم ورماحهم، فأسرع إلى سيفه
وجالدهم به ؛ ولكنهم قد أثنوه جراحاً فارتدى على الأرض مغمياً عليه من كثرة
الزيف ، فأجهزوا عليه ، واحترق رأسه وذهبوا به وبالنسوة والأطفال إلى طاعتهم
اليزيد يحفهم عار الدهر وتشيعهم مسبة الأبد .

ثار أهل الحجاز لمقتل الحسين ، فبعث اليزيد إليهم جيشاً بقيادة مسلم ابن عقبة
فدخل المدينة ونكل بأهلها ، واستباح حرمتها ، وبالغ في الانتقام منهم .
واعتصم ابن الزبير بمكة ، ونقم العالم الإسلامي كله على اليزيد لما للشهيد من
منزلة سامية في القلوب ، ولما للمدينة من قدسية في النفوس .

ونادى أهل مكة بسقوط اليزيد وخلصوه ، وعلى رأسهم عبدالله بن الزبير وانضمت
إليه نجد واليمن ، فأمر اليزيد قائده بالمدينة أن يذهب بجنوده إلى مكة ويرى الكعبة
بالمجنيق إذا اعتصم بها ابن الزبير فرميت فعلا ، ولكن الوفاة عاجلت يزيداً فعاد
جيشه إلى الشام ، وامتد نفوذ ابن الزبير إلى مصر والعراق وفارس وإيران ، وانشقت

الشام على بنى أمية وانضم حزب منهم إلى تأييد ابن الزبير ، وكاد عبد الله يقضى على دولة الأمويين لولا أنه لم يتدبر الأمر .

أما عبد الرحمن بن أبي بكر فقد وافته المنية في زمن يزيد دون أن يخضع لحكمه .

وانصرف عبد الله بن عمر للعبادة ، واعتزل الخوض في الأمور السياسية مصراً

على عدم الخوض فيها فراراً بنفسه عن التبعات وعاش حتى احتال الحجاج الثقفي على قتله بالسم كما يقال .

« عمرو بن العاص رضى الله عنه »

صحابي كبير ، وقائد من أفضا القواد الحجازيين ، قاد الجيوش للغزو والفتح في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن فتوحاته الخالدة فتح مصر العظيمة في عهد عمر ابن الخطاب ؛ وكان إلى جانب كل ذلك من ذوى الدهاء المفرط ، وقطب من أقطاب الحكمة السياسية الذين يستطيعون تكليف مجرى التاريخ طبق رغباتهم ويتصرفون في مصائر الأمم والشعوب فلا تصدر الأمور إلا على وفق مشيئتهم ، وما تمليه لهم أهواؤهم ، ولا أدل على ذلك من الدور الخطير الذى لعبه على مسرح السياسة في ذلك الوقت أثناء وقوع الخلاف بين على ومعاوية فلقد كان عمرو الساعد الأيمن لمعاوية والعضو العامل في حزبه إذ لولاه لما استطاع ابن هند أن ينفذ مشروعه الخطير الذى قام لتحقيقه في قلب نظام الخلافة الإسلامية ، وجرها إليه وجعلها ملكاً عضوضالاً يتوارثها أبناؤه من بعده .

فقد أوشكت وقعة صفين الشهيرة أن تقضى على حركة معاوية وهى في مهدها لولا أن تداركها عمرو بن العاص .

يتماز عمرو على معاوية في الدهاء بسرعة تفكيره وحضور بديهته عند حلول الأزمات العصبية وفي المواقف الحرجة . أما معاوية فإنه كان لا يحكم الرأى في مسألة إلا إذا ترؤى فيها وأمعن في درسها ، لذلك نراه ارتبك لما أحس بدنو السيوف منه حتى أوشكت أن تنوشه وهو في وسط سرادقه لانهازم جيشه أمام جنود على في

صفيين وفي نفس هذا الموقف نرى عمراً لم يرتبك ولم تأخذه الدهشة ، ولم تذهب بحلمه نذر الفناء بل نراه يدبر أمراً لم يكن ليتسنى لغيره في ذلك الظرف الحرج ، فضمن به جلاء الغمة وفوز معاوية وتفريق وحدة خصومهم وتقسيمهم إلى أحزاب متباغضة يضرب بعضهم بعضاً ؛ فأشار برفع المصاحف على رؤوس الرماح والدعوة إلى الاحتكام لما جاء في كتاب الله ، فكانت تلك الفكرة ككذيفة جهنمية أحكم تصويبها حتى لم تدع أحداً من جند على إلا أصابته بشظية من شظاياها ، فذهبوا لا يلون على شيء ونكصوا على الأعقاب بعد أن رأوا النصر عياناً ، وصمو آذانهم ولم يصفوا لعلى وهو يحذرهم من أن تغرهم هذه الخديعة .

بهذه الحيلة ، وبما أبداه عمرو من المهارة في تغرير أبي موسى الأشعري وخديمته له في مؤتمر التحكيم المعقود بدومة الجندل أنقذ معاوية من الموت المحقق في الأولى ومهد له طريق العرش في الثانية .

أضف إلى ذلك في سجل أعمال عمرو بن العاص تصميمه على فتح مصر رغم تخوف الخليفة عمر بن الخطاب من التغرير برجال المسلمين في إرسالهم مع ابن العاص لفتحها فلقد بلغ الحذر بعمر بن الخطاب أن بعث كتاباً لعمرو يأمره فيه إذا وصله كتابه قبل أن يصل إلى مصر أن يقفل راجعاً ، وإن وصلها فليمض في سبيله فبلغه كتاب الخليفة قبل وصوله الأراضي المصرية ، وكأنه علم بما يحتويه الكتاب فأجل افتتاضه حتى وطئت خيله تربة مصر ثم فتحه ، وأعاد الرسول إلى عمر يخبره أنه لم يقرأ كتابه إلا بعد وصوله مصر .

من هذا وذلك يتضح كيف استطاع عمرو أن يغيّر مجرى التاريخ الإسلامى
وبكيفية لنا في وضعيته الحاضرة ، ولولا هذه الصور والأساليب التى انطوت عليها
تلايف ذلك المخ الجبار فى رأس عمرو ، لكان للتاريخ الإسلامى شأن غير هذا .
ولكن الله أراد ذلك فوجه عمرو بن العاص هذه الوجهة .

ولو أردنا أن نسترسل فى التحدث عن عمرو بن العاص و « وحائده » فى الدهاء
لما وسعنا المقام ، فعسى أن أوفق فأفرد لهذه الشخصية الحجازية الممتازة فى عالم الدهاء
بجماً خاصاً بها ، فان عمراً جدير بأن تخلد ذكره إحياء لبعض النواحي الطمورة فى
تاريخ المجد الحجازى .

« خالد بن الوليد رضى الله عنه »

قائد حربى عظيم ، فتوحاته بالشام ، ووقائمه بالعراق ، وانتصاراته على أهل الردة أكبر من أن تقدر ، وأشهر من أن تذكر ، فإذا افتخر تاريخ انكلترا بنلسون وتاريخ أمريكا بواشنطن وتاريخ فرنسا بجان دارك وتاريخ إيطاليا بغاريبالدى ، فإن تاريخ العرب ليفتخر أشد الفخر بخالد بن الوليد فاتح العراق وسوريا وإيران ، وقائد أحسن قوة منظمة فى الجيش الإسلامى العظيم ، وألمع جوهرة فى تاج قواد العرب ، ويتمتع خالد بشهرة واسعة فى جميع الآفاق ، فقد تركت جلائل أعماله دويماً هائلاً يتردد صده على تعاقب الأجيال ، إذأ فهو غنى ببعده صيته عن أن يتحدث عنه ، فقلما نجد شخصاً فى مختلف الأوساط لم تتسرب إليه سمعة خالد ، وبطولة خالد .

بيد أن هناك ناحيتين من النواحي المتعددة التى تمتاز بها شخصية هذا البطل العظيم ، قد تكونان خفية بعض الشيء عند قليل من الناس فهما حربيتان بأن يشار إليهما لتلتفت نحوهما الأنظار فتستنير بهما ذكرى عظمة خالد الخالدة .

أولاً - شغف خالد بالمخاطرة حتى أنه لو وجد فى عصرنا هذا لعد من أعظم المجازفين فى العالم .

ثانياً - تفننات خالد العجيبة واختراعاته المدهشة فى تعبئة الجيوش تعبئة لم يسبقه أحد من العرب إليها ، فمن مخاطراته المدهشة تلك المجازفة التى مكنته من فتح دمشق بعد أن طال أمد حصارها على المسلمين لناعاة حصونها ، فقد سول حب المخاطرة لخالد أن يتحدى جموع الروم وهم فى قلب حصونهم ، فأتى بالجبال وجعلها كهيمة السلام

وتسابق بها الحصون في بضعة رجال من أصحابه الأشداء ، ودمم المدينة ، ووضع السيف في حاميتها حتى أرغم سكانها على تسليم البلدة لأبي عبيدة القائد العام لجيوش المسلمين إذ ذاك^(١) .

وأروع من هذا تلك المخاطرة التي بهت لها كل من سمع بها ، لما خرج عمرو ابن عبد المسيح الملقب ببقيلة لعقد الصلح مع خالد في فتح الحيرة ، رأى خالد كيسيًا معلقًا في حقو ببقيلة فنثره فوجد فيه مسحوقًا فقال : ما هذا ؟ فقال هذا وأمانة الله سم ساعة ، قال خالد ولم تحتقبه ، فقال خشيت أن تكونوا على غير ما أرى وقد أتيت على أجلى والموت أحب إليّ من مكروه أدخله على قومي ، فقال خالد « ابن تموت نفس حتى تأتي على أجلها » وابتلع السم بعد أن أهوى الحاضرون ليمنعوه من بلعه فلم يفلحوا فلما رأى عمرو فعل خالد قال : يا معشر العرب لئلا تكن ما أردتم ثم أقبل على قومه وقال لم أر كاليوم أوضح اقبالا^(٢) .

وانسل خالد مرة عند منصرفه من أحد الميادين العراقية وجاء إلى مكة وحج دون أن يبالي بأغوال الصحراء ووعورة الطريق الذي سلكه وعاد إلى جيشه ولم يشعر أحد منهم بسفرة وعودته لقصر المدة التي استغرقت ذهابه وإيابه ، وكان يجازف بالجريفة من الخيل لا يتجاوز عددها المائتين ، فيحمل بها على الألوف المؤلفة من الجنود الكاملين العدة والسلاح فيظفر بهم . واستمع لما يقوله رجال خالد في خالد : « كنا نظن أن الكثيرين من الأفرنج والقليل عند خالد سواء لأنه كان لا يملأ صدره منهم شيء ولا يبالي بمن لقي منهم لفرط جرأته عليهم ، حمل ذات مرة بمائتي فارس على الفين

(١) عن تاريخ الخميس ص ٢٤٦ بتصرف .

كانوا مدداً لعدوه فما وقفوا حتى انهزموا وانصرف خالد يوجف بأصحابه وحيفاً وحمل على أمداد أخرى كانت أكثر من ألفين فما ثبتوا له فواقاً حتى هزمهم (١).

واخترق خالد بجيشه طريقاً لم يكن مطروقاً من قبل حينما دعى من العراق لإمداد أهل الشام ، وكادت هذه المخاطرة تودي به وبجيشه لقلّة الماء في تلك المفاوز التي اخترقها لولا دليله رافع بن عميرة الطائي فقد دهم على عين ماء في أصل شجرة كانت هناك فاحتقرها خالد وسقى منها الجيش وتزود بمائها

وهذا يرينا مبلغ جرأة خالد وشغفه بالمخاطرة فإنه رغم تحذير المحذرين له من التفرير بالجيش إذا هو سار به من هذه الطريق صمم على سلوكها وسلكها وتقلب على الصعاب فيها وانتسفت إرادته كل ما يحول بينه وبين وصوله إلى جيش الشام بالسرعة التي يريدونها . وبعد أن تم له اختراقها لم يرتح ويرح من معه بضعة أيام كي يستجموا فيها نشاطهم من الجهد الذي أصابهم . وما عانوه في قطع تلك المفاوز المقفرة بل أمر جيشه بالتهيؤ للحرب . وحمل على بعض بلاد كانت على طريقه فافتتحها وأغار على بعض القبائل فاكتمسح بلادهم . وتمقهم حتى استولى الرعب على سكان تلك النواحي مما يقذفهم به خالد من الموت المتواصل والغناء العاجل . ولنضرب لذلك مثلاً بهذه الحكاية « جلس رجل يشرب من شراب له في جفنة وجمع أسرته حوله ليشرّبوا معه فقالوا ومن يشرب في هذه الساعة من أعجاز الليل فقال اشربوا شراب مودع فما أرى أن تشربوا خمرّاً بعدها، هذا خالد بالعين ثم أنشد :

(١) عن تاريخ الخميس بتصرف ص ٩٥ .

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر وقبل انتقاض القوم بالمسكر الدثر
وقبل منايانا المصيبة بالقدر بحين لعمري لا يزيد ولا يجرى
وقال :

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب وما ندرى

فما هو إلا أن فرغ من قوله حتى شد عليه رجل من جند خالد فضرب عنقه فإذا
رأسه في الجفنة^(١)» وتلخص لنا هذه الحكاية على فرض صحتها ما لخالد من أعصاب
قوية لا تعرف من الكلال إلا اسمه فهو يواصل بحملاته المتكررة أطراف النهار بإعجاز
الليل لا تستقر له حركة ، ولا يهدأ لعدوه بال . وله بعد ذلك تفننات رائعة في تعبئة
الجيوش وتنظيمها في الميادين .

فانه بعد أن وصل إلى اليرموك بالسرعة التي أرادها رأى كثرة الروم ورأى
المسلمين فرقا كل فرقة تحت إمرة قائدها ، فلم ترقه هذه الخطة . واقترح على القواد
توحيد القيادة . . وثلاثا يظنون أنه يريد استقلاله بالولاية عليهم ويسلب من أيديهم
ما لهم من سلطة : قال لهم « إذا وحدنا القيادة يتأمر كل يوم منا واحد حتى نتأمر
كلنا واجملوا إلى الأمرة اليوم » فأجابوه إلى ما طلب . فنظم الجيش وعبأه في شكل
لم يعرفه العرب من قبل قسمه إلى جناحين وقلب . وما زالت هذه الخطة التي اخترعها
خالد معمولا بها في خطوط القتال إلى اليوم ، وتعرف بالتمبئة الخالدية نسبة إلى مبتكرها
خالد بن الوليد القائد العظيم ، وكان أن فاز المسلمون على الأفرنج ودحروهم وأوقعوا بجموعهم
وهنا يرينا خالد كيف يسمو بنفسه صمداً ، فقد فوجيء مفاجأة خطيرة إبان

(١) تاريخ الخميس .

تعبته الجنود في ذلك الميدان الذي يتوقف نجاحه على دربة خالد الحربية ، لو فوجئ بها غير خالد لانقلب الموقف رأساً على عقب ولفقد جيش المسلمين في تلك الجهة اتزانها فقد أتاه في تلك اللحظة أمر عمر باعتزاله القيادة العامة وتولية أبي عبيدة وخبر وفاة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فلم يكن من خالد إلا إرسال كلمته الخالدة : « أنا لأحارب لأجل عمر » وكتب الأمر حتى تم له الفوز ثم سلم الكتاب لأبي عبيدة وهناك بمنصبه الجديد .

أية هممة عالية تنطوى عليها أضالع هذا البطل ، وأية نفس تتغلغل في صميمه لقد ضرب خالد بعمله هذا أعلى المثل في الترفع عن الاعتبارات الشكلية التي لا تستطيع أن تغير شيئاً في مجرى حياة العطاء الطبيعية ، فالألقاب والوظائف إن هي إلا صور وهمية لا تريد في عظمة العظيم شيئاً إذا هو أوتيتها ، ولا تنقص من حدود عظمتها شيئاً إذا هو سلبها ، ويكفي خالداً قول أبي بكر فيه لما كثرت كتابات أمراء الأجناد من الشام إليه يخبرونه عن كثرة جموع الروم وهو يمدحهم بالامداد تلو الامداد وهم لا يكفون عن المكاتبة ، قال أبو بكر : « لا خرجن من أعلاج الروم وساوس صدورهم ولأرميمهم بخالد » ونظرة واحدة تاقى على الكتاب^(١) الذي بعثه أبو بكر

(١) يروى أنه مما جاء في الكتاب الذي بعثه أبو بكر لخالد بن الوليد حين أمره بالتوجه إلى الشام وولاه القيادة العامة لجيوش المسلمين : « أن سر حتى تأتي جموع المسلمين بالرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع بعون الله سبحانه أحد من الناس أشجاءك ولم ينزع الشجاء أحد من الناس نزعك ، فلتهنأ أبا سليمان النعمة والخطوة ، فاتهم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتنفسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله تعالى له المن وهو ولي الجزاء » وقوله لم يشج الجموع أى يقهرهم ويغلبهم من أشجاء إذا غلبه (تاريخ الخميس ص ٢٥٥ ج ٢) ، والذي يعنيه أبو بكر من قوله إياك الخ يعاتب خالداً في ذهابه إلى الحج بدون استئذان اه .

لخالد وهو في العراق كقافلة بأن تريك ما لخالد من مكانة عالية عند خليفة المسلمين .
والآن وقد بدأت محيلتنا تلتقط صورة مصغرة للفترة الحيوية التي كانت تعالج
بين جنبي خالد ، فتدفعه إلى الإقدام والمخاطرة ، ورأينا نموذجاً بسيطاً مما كانت
تشمّل عليه نفسية خالد من همة عالية ، ونبل بالغ يرفعانه إلى المكانة السامية في
معارج الكمال الإنساني ، وأخذ شعورنا يحس بما كان لهذه الشخصية من التمرد في
بعض جوانبها ، فلقد طالما تعرضت للموت الأحمر فارتد عنها وفرضت إرادتها على
الأمور فغضعت لها ، وتقلبت على الصعاب فأذعنت لمشيئتها ، يدفعنا حب التطوع أن
نتساءل كيف انتهت حياة هذا البطل المشبهة بالسيف المسلول في ذلك الوقت وفي أي
المواقف همدت فورتها ، وأي الميادين أوقف هذه الحركة المستمرة ، وأية قوة أطفئت
هذه الشعلة الملتهبة . أستطاعت الحروب أن تمد يدها إليه وتسطو على نفسه ؟ أم هل
قويت تلك السيوف التي طالما لاعبها أن تذهب به إلى رمسه ؟ وكيف ومتى قضى نحبه ؟؟
ما قتلتته الحروب ، ولا طالتته السيوف ، ولا نالتته الأيدي ، ولكن يد الله الغالبة
القاهرة هي التي تولت قبض روحه ، فكانت خاتمته على فراشه وبين جدران منزله
في حمص ، وكم حز الأسمى والحسرة في نفس خالد لهذه الموتة المهادئة ، واستمع
كلمته الأخيرة تصور لك المرارة التي يحسها خالد في أعماقه : « شهدت زهاء مائتي
زحف حتى لم يبق في جسمي موضع إبرة إلا وبها طعنة رمح أو ضربة سيف وأموت
على فراشي هكذا كما يموت العنز ، فلا نامت أعين الجبناء .

أبطال الجندية

وشهداء الثبات

أبو دجاجة - أبو محجن - البراء بن مالك - زيد بن الخطاب -

سالم مولى حذيفة - ثابت بن قيس

يكاد يكون الجندي الحجازي في عصره الذهبي من خير الجنود العالمية ، إقداماً وشجاعة ، وثباتاً ونبلاً .

ويجدر بالأمة التي تتطلع إلى الحياة اليوم ، والتي ترغب أن يكون لها جند قوى يحفظ كيانها ويذب عن كرامتها ، ويدافع عن بيضتها ، ويكلل رأسها بأكاليل الغار . أن تتخذ من الجند الحجازي القديم مثلاً أعلى تحمل أبناءها على التخلق بأخلاقه والتطبيع بطباعه .

وبذلك تستطيع الأمة التي يتلقن نشؤها تلك المبادئ العالمية أن تكون لنفسها جنداً يستشعر بكرامتها فلا يغلب من ذلة . ولو حملته على محاربة الأبالسة لماقت ذلك في عضده ، ولأجل أن تتضح لنا الميزة التي امتاز بها الجندي الحجازي القديم في ساحات الشرف عند ملاقات الأعداء نعرض صفحة من أعمال أولئك الجنود البواسل الذين انتشر الإسلام على كواهلهم . ولنتكلم عن هؤلاء الستة المذكورين أسماؤهم آنفاً كنموذج لما كانت عليه نفسية الحجازيين في ذلك الوقت وما تنطوى عليه أفعالهم من الإقدام والشمم ، وأي مبلغ بلغ بهم عرفانهم للواجب فضحوا بأرواحهم العزيزة ودمائهم الغالية في سبيله .

« أبو دجانة الانصاري »

صحابي جليل ، وجندي باسل من صف المشاة في عهد الفتوحات الإسلامية ، وكانت تجمع شخصية هذا الجندي بجانب بسالته الحربية شهامة الرجولة ولنعتمد في إظهار هاتين الخلتين التي تحلى بها أبو دجانة على الحكاية التي نقلها من مجلة الإسلام في عددها ٤٥ (صحيفة ٤٥) بشيء طفيف من التصرف « جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأهبة وعقد الألوية ونظم الصفوف ليسير بها إلى غزوة أحد ، وجنود الله تحف بهم ملائكة الرحمن وتظلمهم عظمة الإسلام ينتظرون أمر الرسول ويراقبون منه الإشارة بالسير . في هذا الموقف الرائع المهيب تناول صلى الله عليه وسلم سيفاً من السيوف التي اغتتمها المسلمون في غزوة بدر وقال لمن حوله من الجنود البواسل ، من يأخذ هذا السيف بحقه ، فتقدم سماك بن خرشنة الملقب بأبي دجانة فقال وما حقه يا رسول الله قال « أن تضرب به في الأعداء حتى ينحى » فقا أنا آخذه بحقه فأعطاه إياه . قال الزبير والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة بالسيف فرأيته أخرج عصا به حمراء فمصب بها رأسه فقالت الأنصار عندئذ وضع أبو دجانة عصاها الموت ثم خرج يقول منشداً :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أكون قط في الكيول^(١) أفرى بسيف الله والرسول

فلما تلاقت الرجال ، ولمت السيوف ، وحى الوطيس ، رأيت أبا دجانة يقاتل

(١) الكيول مؤخر الصفوف

بالسيف حتى أمعن في الناس لا يلقى أحداً من الأعداء إلا قتله وكان من المشركين -
رجل شديد البأس لا يدع جريحاً إلا ذفف عليه فدعوت الله أن يجمع بينهما فجعل
كل واحد يدنو من صاحبه حتى التقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة
بسيفه فأثقاله بدرقته فعضت الدرقة بسيف المشرك وضربه أبو دجانة بسيفه ضربة
واحدة كانت الفاضية . ورأيت عند سفح الجبل نسوة للمشركين يضرين بالدفوف
ومعهن هند بنت عتبة تنشد ويرددن معها .

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
مشى القطا النقايق الدر في المخانق
والمسك في المفارق أن تقبلوا نعايق
أو تدبروا نفارق

يثرن بذلك حماس رجالهن فلا يفترن عن القتال تحمل عليهن أبو دجانة بالسيف
ونادت هند مستغيمة بالصخرات، فلم يجيبها أحد فكف أبو دجانة عنهن وانصرف إلى
الرجال يقاتل حتى انقطع السيف في يده .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها . أقبلت على أبي دجانة . وقلت له كل ما فعلته
بسيفك أعجبني غير أنك لم تقتل المرأة فقال فإنها نادت تستنجد بالرجال فلم يجيبها
أحد فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرهت أن أضرب به امرأة
لا ناصر لها وهنا يضرب لنا أبو دجانة المثل الأعلى أيضاً في الشهامة العربية وفي احترام
حرية المرأة وفي عدم العدوان على أعزل، وهذه صفات تدعو إليها مدينة القرن العشرين
اليوم وقد عرفها أبو دجانة ومعاصروه من بني أمته العرب ومن مواطنيه الحجازيين

في القرن السادس لأنها صفات تدعو إليها الإنسانية العامة قبل أن تدعو إليها مدنية
القرن العشرين - فيا لله ما أكبر هذه النفوس ، وأعظم تلك الخلال ومن أحق من
هؤلاء بالافتداء ؟؟ .

« أبو محجن الثقفي »

كان أبو محجن الثقفي من جنود المسلمين في حرب الفرس ولا تهامه بالسكر كبله بالحديد
سعد ابن أبي وقاص - القائد العام للجنود الإسلامية في تلك الميادين - وسجنه ووافق يوم
سجنه أن كانت وقعة القادسية الكبرى فرأى أبو محجن الثقفي الأبطال يتبارون في
ميدان الجهاد بشجاعتهم . فأخذته الحسرة على نفسه - وأن سجن مثل هذا الجندي
الباسل في مثل ذلك الظرف ، لشديد ومؤلم - ولولا ما جبل عليه من الطاعة لرؤسائه
لحطم أغلاله بيده ولذهب إلى المسكن الذي تنتعش له نفسه ووالد الأعداء بسيفه ولكن
ذهب يتلمس الخلاص مما هو فيه ، على يدي «سلمي» زوجة سعد لعلمها ترق له وتخلصه
من الأغلال التي يرسف فيها ، فقال لها هل لك إلى خير؟ قالت : وما ذلك؟ قال تخلي
عني وتعيريني « البلقاء فرس سعد » فوالله إن سلمني الله أن أرجع فأضع رجلي في القيد
فلم تجبه سلمى إلى ذلك فشق عليه الأمر ، فلما جنه الليل رفع عقيرته وأشد :

كفي حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قتت عناني الحديد وأغلقت مصارع دوني قد تصم المنايا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تكوني واحداً لا أخاليا

فسمعتة سلمى فلما أصبحت أعطته البلقاء وأطلقتة وخرج تعدو به البلقاء فحمل على ميسرة الفرس فقتل رجلاً وأنكس أبطالا . ثم حمل على ميمتهم وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، والمسامون يرمقونه بأبصارهم مأخوذين بشجاعته يتساءلون من هذا الفارس وكان سعد يراه من شرفته فيقول . والله لولا محبس أبي محجن لقلت هو هذا ، وهذه البلقاء . فلما انفض الموقف عاد أبو محجن إلى سجنه وأعاد قيوده إلى رجلية كما كانت وأنشد :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أحبس فذلكم بلأني وإن أترك أذيقهم الختوقا

فسألتة سلمى في أى شيء حبسك سعد . فقال والله ما حبسنى سعد فى حرام أكلته أو شربته . وإنما كنت صاحب شراب فى الجاهلية وإنى امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فقلت :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى فى التراب عروقها
ولا تدفنى فى الفلاة فإننى إذا مت أخشى أنى لا أذوقها

ولذلك حبسنى فأخبرت سلمى زوجها بخبره فدعاه إليه وأطلقه وقال له إذهب فما أنا مؤأخذك على شىء تقوله حتى تفعله ، فقال أبو محجن : إذاً والله لا أجيء لسانى إلى قبيح أبداً .

هذا نموذج لما كانت عليه النفوس فى ذلك الوقت وإن قوماً لآبأهم مثل هذه النفوس العالية جديرون باتباعهم وليس من الصعب ولا من المستحيل أن يصل

أبناء هؤلاء الأجداد إلى ما كان عليه آبائهم ، وأن الطريق التي سلكها الأسلاف الكرام عليهم الرحمة واضحة المعالم فسيحة الأرجاء ضمنية لكل من سلكها أن تصل به إلى ما تصبو إليه نفسه من عز ومنعة حتى تضع يده على الهدف الأعلى الذي له يجاهد ، ومن أجله يحيا ومن يسلك طريقا غيرها فقد باء بخسران مبین وكان في هذه الحياة من الأذلين .

« البراء بن مالك رضی الله عنه »

وهذا مثل آخر ترى به البسالة في أروع معانيها تتجلى في خطوط القتال، فلقد كان البراء في صف الخيالة في المدرسة الحربية الحجازية^(١) إبان ازدهارها . فكان إذا رأى الحرب ينتفض انتفاضة لا يفوق منها حتى يمسه الرجال فإذا ما أفاق بال بما يشبه الدم ، ثم يركب فرسه والخيل من ورائه ويحمل على العدو فلا يعود من وجهته حتى يدع الميدان قاعاً صاففاً من أعدائه أو يقتل . وله من الوقائع الحربية ما لا يتسع المقام لسرده وكان كثيراً ما يعتمد عليه خالد بن الوليد فيجعله على أعنة الخيل في أهم الميادين الحربية وقد شهد له خالد بالشجاعة وحسن البلاء في الحروب فقال حينما سئل عنه « كان البلاء للبراء والناس له تبع » .

وخالد من قد علمت وقد ذهب البراء ضحية حملاته الجبارة، فقد استشهد في وقعة اليمامة لما حمل على بني حنيفة تلك الحملة المنكرة حتى أقحمهم الحديقة واقحمها وراءهم

(١) لم نعن بالمدرسة تلك البناية التي تضم بين حوائطها التلامذة ولكن نعى بها هنا المدرسة

بمعناها الواسع .

وقاتلهم على بابها حتى فتحه للمسلمين، فلما دخلوها وجدوه قتيلاً عليه ووجهه ما يكاد يبين لكثرة الجراحات فيه . رحمه الله ورضى عنه .

« زيد بن الخطاب رضى الله عنه »

حمل لواء المسلمين في وقعة اليمامة وتقدم به الصفوف ووقف في بحر العدو حتى إذا حمى الوطيس وتكاثر المشركون على الصحابة ووقعت الهزيمة في المسلمين لم يبرح زيد مكانه ولا التفت إلى من ورائه بل اخترط سيفه وقاتل به مستميتاً وأحاط به المشركون إحاطة السوار بالمعصم ليستقوا الراية من يده وهو ينحربها في صفوفهم باذلاً جهده في أن لا تقع الراية من يده ولا تتأخر من المسكان الذي أقيمت فيه أو يموت فكأخفهم مكأخفة الأبطال وجالدهم بسيفه جلادا قاسياً حتى أعيامهم ولم يجدوا إليه ولا إلى الراية سيديلاً ثم تعاونوا عليه وضربوه بسيوفهم إلى أن خر صريعاً في ساحة الشرف فكان مثال التضحية الشريفة في سبيل المبدأ الشريف - وهكذا فليكن الثبات والحرص على الراية التي هي رمز العزة وشعار الأمة ، ولقد عرف زيد واجبه نحوها فضرب أروع الأمثال في الثبات بها والدفاع عنها ، فلم يزحزحها عن مكانها حتى مات دونها ونفى عن نفسه معرة الانهزام بها وكأنه يقول لمن يخلفه ممن يحملون الأعلام ويرفعون الرايات في ساحات القتال ، لا يخلق بمن يحمل الراية أن ينهزم ولو لم يبق في الميدان سواء

« سالم مولى حذيفة »

وهذا سالم يرينا كيف يجب أن تكون الجنود في ساحات القتال وياق علينا بجرأته الخالدة درساً بليغاً تفور له الدماء في العروق وتهفو إليه الأرواح وتود لو أنها

تخلص إلى عليين فتلتقى وروح سالم فتحيميه وجهاً لوجه دون أن يكون بينها وبينه حجاب .

لما رأى سالم مصرع زيد بن الخطاب وسقوط راية المهاجرين من يده أسرع إلى الراية ورفعها وحفر الأرض حتى بلغت أنصاف ساقيه وهال عليها الرمل لئلا يتحرك من مكانه . واشتد القتال بين الفريقين وسالم ثابت في مكانه يقصم بسيفه كل من دنا منه إلى نصفين فلما رأى المشركون شدته عليهم وثباته دونهم شدوا عليه بسيوفهم فقطع ذراعه الأيمن فتناول الراية بيده اليسرى فقطعت أيضاً فأطبق عليها بعنقه حتى انفصل رأسه من جسده رحمه الله .

« ثابت بن قيس »

وفي هذه الموقعة نفسها اقتدى ثابت بن قيس الأنصاري بسالم ووضع قدميه في حفرة إلى أنصاف ساقيه وثبت فيها ثبوت الرواسي الراسخات وبيده راية الأنصار ولقد كان الناس يتفرون وإن سالما وثابتا لقائمان ثابتان برأيتيهما » وكلما رأى الأنصار رأيتهم مرفوعة ترفرف على رأس ثابت، وثابت لم يتحرك بها عن مكانه يشوبون إليه كما يشوبون إلى الحصن المنيع حتى تناوشته السيوف من كل مكان وذهب شهيد ثباته . وكانت العاقبة أن دحر المسلمون أعداءهم وانتصروا عليهم . وهنا يقف الفكر برهة مأخوذاً بروعة هذه البطولة التي تتجلى في أشخاص هؤلاء العظماء ، ثم يسبح في عالم الخيال آخذاً بيد الروح حتى يشرف بها على مصارع هؤلاء الشهداء فتتظفر

إلى قبورهم معجبة ببساتهم فلا تملك بعدها أن تحميمهم من الأعماق .

السلام عليكم أيها الشهداء الأبرار

» » يا حماة الدين وأنصار الحق

» » يا دعاة الفضيلة ويا أهل الشمم

» » يا حزب الإله وجند الإسلام

» » يا أبطال الوغى ويا آساد الشرى ويا أهل الصبر والصدق والوفا

» » يا من رفعتم رؤوسنا عالية وتركتم لنا مجداً مخلداً صرنا نفاخر

به الأمم ونباهى به الشعوب .

فليهنكم أيها الأجداد ما أتاكم الله من مجد الحياة ونعيم الآخرة .

ثقوا أيها الصناديد أن الإسلام الذي جاهدتم من أجله وتم في سبيله قد عم

وانتشر ، وقد انطوى تحت الراية التي قتم ذباً عنها ملايين من البشر ، وأن تلك الراية

مازالت خفاقة ترفرف على كثير من أقطار المعمورة ، وماذهب جهادكم عبثاً ولا ضاعت

جهودكم سدى .

« أبو ذر الغفاري رضى الله عنه. »

لم تقتصر المدرسة الحجازية في عصرها الذهبي على إخراج هذا الصنف من الرجال الذين قدمنا ، بل أنجبت صنفاً آخر من الرجال اشتهروا في ميادين أخرى كثيرة ، فكما أخرجت لنا رجالاً كانوا المبرزين في قيادة الجيوش ، وفي ساحات القتال ، وناخبين في سياسة الشعوب وفي القيام على الملك أرتنا أفذاذاً من أبنائها يهتمون بالمسائل الاجتماعية ، كما يهتم لها علماء الاجتماع اليوم ، أمثال أبي ذر الغفاري الذي أريد أن أتحدث عنه كنموذج لبعض أنحاء التفكير الحجازي في ذلك الوقت .

كان أبو ذر الغفاري من ذوى المبادئ العالية وأحد الصحابة الأجلاء ، ويصح أن نقول عنه انه كان زعيماً اجتماعياً خطيراً ، فلقد حصر تفكيره في مسألة اجتماعية خطيرة أيضاً وهي أنه كان - كما يظهر - يرى وجوب نزول الناس على قاعدة التساوى في المعاش ، وأن ليس للأغنياء الحق في اكتناز الأموال وحبسها عن الفقراء مما يؤدي هؤلاء إلى شظف العيش بينما الآخرون يرفلون في مجوحته ، وكانت هذه الفكرة كثيراً ما تساوره فتقضى مضجعه ، فقام يدعو الناس إلى ما يراه الحق . ويعتقد فيه الصواب . وكان إذ ذاك بالشام فنشط في نشر دعوته وتحمس لها وعمل على تعميمها وذويعها ، فخطب في المساجد والمنتديات يهيب بالأغنياء أن يشرخوا الفقراء في أموالهم ومن هنا يظهر للغفاري أن الاشتراكية عرفها الحجاز من قبل اثني عشرة قرناً تقريباً قبل أن يعرفها علماء الاقتصاد وفلاسفة المجتمعات الآن ، فهذه هي الاشتراكية التي دعا إليها بعد ذلك « كارل ماركس » فهل لنا أن نعتبر كارل ماركس

تلهيناً عقلياً أو روحياً لأبي ذر الغفاري ، هذا ما يجب أن يقوله التاريخ لو أن لتاريخ العرب والمسلمين من العناية ما للتاريخ الأوروبي الحديث فأحدثت دعوته إلى ذلك ضجة في جميع الأوساط ، حتى أقلق أمره معاوية بن أبي سفيان عامل عثمان بن عفان على الشام .

بعث معاوية إلى أبي ذر بألف دينار يختبره بها ليرى هل فعل أبي ذر يطابق قوله أو هو هازل فيما يدعو الناس إليه ، وأعاد معاوية في اليوم الثاني رسوله يسترجع الألف الدينار منه بحجة أنها أتمه خطأ ، فلم يجد عند أبي ذر منها شيئاً ، بل وجد أبا ذر قد فرقها حتى لم يبت عنده دينار واحد منها ، فعلم معاوية أن أبا ذر جاد فيما يدعو إليه ، وليس هو بالهازل كما قد سبق إلى ظنه ، فخشى مغيبة الأمر إذا هو تركه وشأنه وما وسع معاوية إلا أن يرفع أمره إلى خليفة المسلمين ، ليرى فيه رأيه .

فكتب الخليفة كتاباً استدعى فيه أبا ذر إليه بالمدينة فجاءها أبو ذر وما اطمأن به المقام في المدينة حتى قام يدعو الناس إلى مداعمة إليه بالشام وجد في ذلك حتى ضاق بأمره عثمان فأبعده إلى الربذة فبقى بها إلى أن مات . ومذهب أبي ذر هذا يشبه مذهب الاشتراكية اليوم من بعض الوجوه غير أن أبا ذر رضى الله عنه كان يدعو الأغنياء إلى اشراك الفقراء في أموالهم من قبيل الشفقة والعطف بإخوانهم وبينهم عن اكتناز الذهب والفضة والشح بها عملاً بقوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » خشية أن يحل بالأغنياء عذاب الله ونقمة يوم القيامة .

« عبد الله بن العباس رضى الله عنه »

كان عبد الله بن العباس من الأفاض القليلين الذين منحوا جودة الفهم وحدة الذكاء ، وكانت نفسه العالية تدفعه إلى طلب العلم ، وكان حافظاً وجدانياً يحثه على أن يكون من المتضلعين فيه ؛ فكان يذهب إلى الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسب عنده شيئاً من الحديث فيلقاه نائماً فيقف على بابه تسفي عليه الأرياح من تراب الأرض دون أن يتذمر حتى يستيقظ فيأخذ عنه ما عنده وينصرف .

وكان وجوده في زمن تطور عقلى هائل وحركة علمية شديدة وحياة فنية متطلعة إلى السمو والكمال ، وروح دينية رائعة تسود ذلك التطور وتلك الحركة والحياة من تأثير ما أحدثته تلك المدرسة الحديثة التى أسسها صاحب الرسالة الإسلامية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من نهضة قوية شملت جميع المناحى فى النفس الإنسانية لتتصعد بها من حضيض الجهل والامية إلى مدارج الرقى والفلاح ، فما هو إلا أن ترعرع ابن عباس رضى الله عنه وعرف نفسه فوجدها بين أحضان بيئة عالية تكنتفها من جميع الجهات . تلك هى البيئة المحمدية التى لم يحدثنا تاريخ أمة من الأمم أنها وصلت فى عصر من عصور حياتها ببيتها العامة من التهذيب مثل ما وصلت إليه هاته البيئة التى أوجدها نبي الإسلام فى بلاد العرب وعلى الأخص فى البلاد الحجازية التى كانت مهد تلك الدعوة السامية والصيحة المدوية التى تجاوزت أطراف المعمورة بأصدائها ، فوحدت ميول الناس وجعلتهم فى مستوى واحد من الأخلاق والصفات . وإنها لبيئة تاريخية جليلة فاز بها المجتمع الحجازى فى دور

من أدوار حياته - هذه البيئة هي التي وجد ابن عباس بين أحضانها فتمسَّكها وغمس بنفسه في قرارها وعب من علومها ومعارفها كما يعب الظمآن من ماء عذب بارد وتنقّل بين مواردها ينتهل من مناهلها العذبة برغبة ملحة ولهفة شديدة حتى شفى غليله وروى ظمأه ، وتضلع بالكليات والجزئيات منها فلم تفته صادرة ولا واردة مما كان يعنى به القوم إذ ذاك ، فكان المبرز على علماء زمانه .

* * *

وأظهر ابن عباس من الاستعداد والمقدرة الممتازة في حل المسائل العويصة ، وتوضيح العميات ما دفع بتلك المدرسة التي تخرج فيها والتي لا تذهب لديها الكفايات هملاً ، بأن تمنحه لقباً علمياً لم يفز به سواه إلا ثلاثة من زملائه على كثرة من ضمت تلك الجامعة الفسيحة الأرجاء الواسعة الجوانب من التلامذة النجباء ، فلقبته « حبر الأمة » تقديراً لنبوغه وعبقريته الفائقتين ، ونال من المنزلة والاحترام عند الخلفاء الراشدين ما لم ينله غيره ، فكثيراً ما كانوا يستشيرونه في مهمات المسائل ومهمات الأمور ولم تمنعهم حداثة سنه أن يقدموه على أكبر الصحابة .

وكان عبدالله بن العباس يتمتع طوال حياته بجوهرة مخية - إن صح هذا التعبير - شديدة الصفاء ، قوية اللعان ، سريعة الالتقاط لكل ما تراه وتسمعه ؛ ولقد أعجز إذا حاولت تشبيهها بشيء يقربها إلى الأفهام ولكن عجزى لا يمنعني من أن أقول : إن جوهرة مخ ابن عباس كانت أشبه شيء بعمدسة « الفوتوغرافية » التي لا تمر على شيء إلا أسرعت إلى التقاطه وإثباته بسرعة متناهية . فكذلك كان ابن عباس في ذهنيته

النيرة ، لا ترى عيناه شيئاً ولا يمر بسمعه شيء إلا أسرع إلى التقاطه وإثباته في تلافيفها (صورة طبق الأصل) لا تضاهيها فيه عدسة المصور الماهر مهما بالغ في انتقاء بلورها ، ولا أدل على ذلك من الحكاية التي يرويها لنا صاحب الأغاني في صحيفة ٧٢ من الجزء الأول قال : « بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعندة نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال أنشدنا فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فبيكر غداة غد أم راح فهجرجر^(١)

حتى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : الله يا ابن عباس إنا نضرب إليك أباط الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتناقل عنا ، وبأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر

(١) وتام القصيدة هذه الأبيات نقلا عن كتاب عصر الأمون :

لحاجة نفس لم تقل في جوابها	فتبلغ عنراً والمقالة تعذر
أشارت بمدراها وقالت لأختها	أهدا المغيرى الذى كان يذكر
فقال نعم لا شك غير لونه	سرى الليل يطوى نضه والنهجر
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت	فيضحى وأما بالعشى فيخسر
أخاسفر جواب أرض تقاذفت	به فلوات فهو أشعث أغبر
قليلاً على ظهر المطية ظله	سوى ما نفي عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة	وربان ملف الحدايق أخضر
ووال كفاها كل شيء يههما	فليس لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمتى السرى	وقد يجشم الهول المحب المغرر

فقال ليس هكذا قال ، قال فكيف قال ؟ فقال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر
فقال : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال : أجل ، وإن شئت أن أنشدك
القصيدة نشدتك إياها ، قال : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ، ثم
أنشدها مقلوبة من آخرها إلى أولها وما سمعها إلا تلك المرة صفحاً ، قال وهذا غاية
الدكاء ، فقال بعضهم ما رأيت أذكي منك قط ، فقال لكنني ما رأيت قط أذكي من
على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان ابن عباس يقول ما سمعت شيئاً إلا رويته وإني
لأسمع صوت النائحة فأسد أذني كراهة أن أحفظ ما تقول

وهذه الحكاية سحت أو لم تصح فإنها دليل على أن ابن عباس بهت الناس بحجة
ذكائه وكذلك ترينا أيضاً مكانة ابن عباس في الدين فلقد كان الناس يضربون له
آباط الإبل من أقاصى الأرض يسألونه عن الحلال والحرام ، ولماذا نذهب لذلك ، فهذه
فتاوى ابن عباس وأقواله لم تزل إلى يومنا من أقوى المصادر الفقهية ، ومع كل فلم
يكن ابن عباس مترمماً في نفسه

فها هو لم يتخرج من مجالسة ابن أبي ربيعة ذلك الشاعر الغزل ، وهاهو يصنى
إليه في المسجد الحرام ، ويستمتع غزلياته ويحفظها ، بل كان يتفقدته إذا طالت عليه
غيبته ، فيقول : « ماذا أحدث هذا المغيرى بعدنا » .

وهنا يتصور الإنسان كيف كان مجلس ابن عباس طريقاً تنشرح له الصدور
وتلتذ الأنفس من درسه لا سأم ولا ضجر يستوليان على من حوله لما يتخلل مجلسه
وحديثه من شتى الأبحاث ومختلف العلوم ، ولا أحسب إلا أن المسجد الحرام كان

يفص بالناس من كل فج فيجدون عند ابن عباس بغيتهم على اختلاف مشاربهم ؛ وقد
وسمهم ابن عباس علماً ، وفهماً ، وحلماً .

وكان يجمع ابن عباس في شخصيته بجانب علمه الواسع ، وأخلاقه الدمثة ، وعدم
الترمت المقوت ، ذلاقة اللسان ، وقوة الحججة ، وجمال الهيئة ، وصباحة الوجه ؛
فكان يستهوى ناظره ، ويفلج مناظره . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده .
ثم هو بعد ذلك أبو الأملاك من آل العباس ، أولئك الذين بلغت بغداد على
أيديهم من المدنية والحضارة ، وسعة الملك ، وعظمة السلطان ، وأبهة الخلافة ، ما لم
تبلغه دولة من الدول الإسلامية .

وبالجملة فإن عباس رضى الله عنه من الخالدين ، ألا ترى اسمه يتردد على السنة
العلماء والفقهاء ، وفي المعاهد الإسلامية ، وفي الحلقات العلمية ، وسيدى اسمه يتردد
حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فحق للحجازيين أن يفخروا بنا بغيتهم ما فخرت
شعوب الأرض بعلمائها والناقبين من أبنائها .

« عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه »

هاجر عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من مكة إلى المدينة المنورة مع من هاجر إليها من المسلمين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواخى في المدينة بين المهاجرين والأنصار تأليفاً لقلوبهم . ولقد كانت لهذه المؤاخاة أثر حميد في تآلفهم وتحابهم وتكونت من جرأتها وحدة قوية دكت كل ما يعترضها أو يقف في سبيلها عائقاً عن الوصول إلى الهدف الذى رسمته لنفسها .

ومما يجب أن يحمد لأهل المدينة ذلك العطف الذى يذكر لهم إخوانهم المكيون فإنهم برهنوا بما أبدوه لهم من كرم الوفادة وحسن المؤاخاة وجميل العشرة على أخلاق عالية لم يفز بالإتصاف بمثلتها سواهم . ولا أغالى إذا قلت أن تلك الأخلاق والصفات التى منحوها أخلاق وصفات ملائكية محضة لم تعلق بها أضرار الحياة المادية التى يحياها العالم اليوم ؟

انظر لأهل المدينة يشاطرون المهاجرين إليهم من أهل مكة دورهم وأمواهم ويذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك فن كان فى عصمته منهم زوجتان يطلق إحداهما عن طيب خاطر ليتزوجها أخوه المكي .

يا للنبل ، ويا للكرم ، ويا للإنسانية . من لهذه الصفات بعد هؤلاء الناس . نعم وقف المكي بجانب المدنى شاهراً سيفه لا يتحرج عن قتل أقرب قريب له إذا هاجم المدينة وأراد بها سوءاً اعترافاً بفضل أهلها عليهم . واستعاض المهاجرون عن أهلهم

وبلادهم بالأنصار واتخذوهم أهلاً بأهل وخالاناً بخلان وحببت إليهم المدينة فكانت لا تقل منزلتها في قلوبهم عما تكنه نفوسهم في أعماقها من الحب الشديد لمكة موطنهم الأول . ولكنهم إنما كانوا جميعاً يذبون عن دينهم الذي ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا .

وكان نصيب ابن عوف أن آخاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع «سعد بن الربيع» الأنصاري فذهب سعد بأخيه إلى داره وأكرم وفادته وجمع ما له فشطره إلى شطرين وقال له « يا عبد الرحمن أنى من أكثر الأنصار مالاً فأنا مقاسمك وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداها فإذا انقضت عدتها فتزوجها » فأجابه عبد الرحمن « بارك الله لك في أهلك ومالك » . وامتنع من أخذ شيء من أخيه وخرج يشد السوق ليمتجر فيه . وطبيعى أن عبد الرحمن كان ضليعاً بأمرور البيع والشراء فهو ابن بيئة تجارية كانت لا تعتمد في معاشها إلا على التجارة . فلقد كان لأهل مكة رحلات تجارية منظمة وكانوا يضاربون بسلعهم في مختلف الأسواق سواء كانت هذه الأسواق في داخل الجزيرة العربية أو في مصر أو في الشام أو في الحبشة . وكانت هذه الأعمال تستغرق معظم أوقاتهم وكل حديث لهم في مجتمعاتهم أو منتدياتهم لا بد أن يتخلله ما يمت إلى البيع والشراء بصفة وبالجملة فلقد كانت بيئة المسكين التي نشأ فيها عبد الرحمن بيئة تجارية فلا غرابة إذا رأيناه يسرع إلى السوق ويطلب المعاش من اخلاف السلع . ولكننا لا نلبث أن نرى عبد الرحمن قد تكون لديه رأس مال يأخذ في التضخم شيئاً فشيئاً وبعد مرور بضعة

أعوام عليه يطالعنا ابن عوف بثروة هائلة يملك بها عنان الأسواق التجارية وإذا هو
أثرى أثرياء المدينة .

إذاً فلقد كان عبد الرحمن رجلاً عصامياً كون نفسه بنفسه ، فقد أتى من مكة
فقيراً معدماً لا يملك شيئاً وكان أن تأخا مع أحد أثرياء المدينة فيعرض عليه هذا شطر
ماله وإحدى زوجتيه فيأبى أن يأخذ منه شيئاً هو في شدة الاحتياج إليه في ذلك
الوقت فبرينا من نفسه خلة هي لعمرى خلة من يحس برجلوته المكتملة ويسرع إلى
السوق خلوا اليدين فيتجول فيه ذهاباً وإياباً كصغار الباعة غير آبه بما يرمى به أمثاله
من نظرات الاستخفاف . فلا نلبث أن نرى بين يديه رأس مال لا بأس به يتعمده
عبد الرحمن بعنايته وينميه بمقدرته الاقتصادية العجيبة فتظل عليه بعد أعوام قلائل
فإذا نظرات الاستخفاف التي كان يرمى بها في مبدأ أمره قد تحولت إلى نظرات إكبار
وإعجاب . وإذا هو ملك التجارة والمتصرف الوحيد في صعود الأسعار وهبوطها في
الأسواق، وإذا هو المثل الأعلى في المقدرة التجارية والكفاية الاقتصادية .

فلو أردنا أن نقارن بين عصامية عبد الرحمن في ذلك الوقت وبين العصاميين
الحاليين من رجال الاقتصاد الذين تطنطن الجرائد والمجلات بأسمائهم في كل وقت وعند
كل مناسبة . لو وجدنا اقتصادينا هذا قد سبقهم بمراحل فعبد الرحمن لم يلج في تنمية
ماله طريقاً غير مشروعة مما يسهل عليه الربح كاللاكتساب عن طريق الربا مثلاً الذي
لا يستطيع عصاميو اليوم أن ينموا أموالهم إلا عن طريقه . ولم يعرف في زمن
عبد الرحمن « الامتياز » فنقول انه تحصل على امتياز كذا من الأصناف لا يسمح

لغيره في جلبها فكان سببا في تضخيم ثروته ولم يعمد إلى طريق المساهمة المالية التي هي عماد تضخيم الثروات في عصرنا الحالى وإنما كان ينمى ما له بالمضاربات التجارية المشروعة .

فعبد الرحمن رجل مومن في العصامية بز بعصاميته أبناء الأجيال المتعاقبة وتلك موهبة أودعها الله فيه لا يجاريه فيها إلا القليلون التابعون في فن الاقتصاد فإذا قلنا أن عبد الرحمن كان عصاميا فلا نعى به إطلاق هذا اللقب عليه كما يطلق على عصامى اليوم الذين لولا الطرق التي قدمنا ما استطاعوا أن يصلوا إلى شيء قل أو أكثر فعصاميو اليوم لا يبلغون أدنى الدرجات في منزلة عبد الرحمن . بل اننا نطلق عليه لقب عصامى بمعناه الصحيح ونريد به معنى العبقرية والنبوغ في فن الاقتصاد بكل ما تشتمل عليه هاتان الكلمتان من معانى .

« واضعو نواة المدارس في الأمصار »

زيد بن ثابت - عبد الله بن مسعود

عباده بن الصامت - معاذ بن جبل - عبد الله بن عمرو

ان كانت الأنجم الزهر تسطع بنورها في حلك الليل فيهدى بها الضالون في مهامه القفر ، ويسترشد بضوءها المتحيرون في لجج البحر ، فإن الحجازيين كانوا في عصرهم الذهبي كالسكواكب الوضاءة يستضيء بهم العالم في ظلمات السكون الدامسة ، ويصلون بهديهم إلى طريق السعادة والرشاد فما من أمة أنعم الله عليها بنعمة الإسلام ، وبلغت من الحضارة والعمران ما بلغت . وقطعت في مراحل العلم والعرفان ما قطعت إلا وكان للحجاز اليد الأولى في مدار حركتها ، وللحجازيين اللبنة الأساسية في بناء صرحها .. افتتح الحجاز العراق ، وفارس ، ومصر ، والشام ، واليمن ، والهند والأندلس ، وافريقية ، وضم إليه نجداً ، واليامة ، والدهناء ، والجزيرة . وكانت كل هذه الأمم التي تسكن هذه الأقاليم الشاسعة منجلة العرى مفككة الأوصال لا يعلمون أين وجهتهم في الحياة ، ولا إلى أين ينتهي بهم القرار ، ذاهلين عما حولهم خاملين فيما بينهم ، تنخر فيهم الفوضى ويفتك بهم الاضمحلال ، منوا بولادة جأثرين وعمال ظالمين وإدارة فاسدة تسيطر عليهم وتسير دفتهم وتسوقهم سوق الأنعام إلى مذابح الأطاع والشهوات .

وكان الناس في ذلك الوقت أشبه ما يكونون بنائم ضغط على صدره كابوس قوى

شل حركته وخدر أعصابه . فجاء الفتح الإسلامي ورفع ذلك الكابوس عنهم وأيقظهم من سباتهم . فانتبهوا من غفلتهم . فوجدوا أمامهم رسل الإنسانية وأئمة الهدى يلوحون لهم بألوية الحرية ، وأعلام العلم وينادونهم باسم الإسلام أن هبوا لتغذية أرواحكم وعقولكم بالمعارف السماوية التي اختارنا الله لأن نكون أساتذة الكون فيها ، فأقبل الناس عليهم أفواجا يرتشفون بلهفة من معينهم العذب الذي لا ينضب وقد أبيع ورده لكل وارد .

فكان بالعراق عبد الله بن مسعود واضع نواة المدرسة العراقية التي ازدهرت في عصر العباسيين ذلك الازدهار العجيب ، وتبلورت علومها - على حد تعبير الأستاذ المحقق أحمد أمين - واستقرت في شخص الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان وتوجت تلك المدرسة بمذهبه الشهير .

وكان أول أستاذ فاز به المصريون عبد الله بن عمرو واضع نواة المدرسة المصرية التي توجت فيما بعد بفخر المصريين الليث بن سعد .
أما الشام فقد نزل به عبادة بن الصامت فوضع أول لبنة في أساس المدرسة الشامية التي كان من خيريجها أعلام علمائهم .

وبعث معاذ بن جبل إلى اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع نواة المدرسة اليمنية التي أنجبت أئمتهم في الدين .

فكان لهؤلاء الصحابة الأعلام وغيرهم - ممن تثقف على يد الأستاذ الأول والمعلم الأعظم محمد بن عبد الله - الأثر الحميد في تكوين المدارس الإسلامية وتمهية العقول لتلقى العلوم المتنوعة التي كانت تنتظر المسلمين في حياتهم الجديدة التي شيّدوا فيها حضارتهم الخالدة .

ولقد امتاز علماء الصحابة رضوان الله عليهم بصفات سامية أهلهم لأن يكونوا بحق أساتذة الكون وأمناء الأمم . تحلوا بالصدق وتزودوا بالإخلاص ، وحافظوا على ما أوتوا من العلم وأدوه كاملا غير منقوص منه ولا مزيد فيه . ما طلبوا بمعارفهم عرض الدنيا وما أرادوا على ما صرفوا أنفسهم له أجراً ، فتبارك علمهم وارتفع شأنهم وخلد ذكركم وبمد صيتهم . وكان أن وقر في النفوس احترامهم وأشرت القلوب بحبهم وأجمعت أبناء الأجيال المتعاقبة على تعظيمهم .

وما زالوا ولن يزالوا المثل العليا والأسوة الحسنة للمقدين بهم والسالكين سبيلهم . وما أحوجنا اليوم لأمثالهم ، وحبذا لو نرى في وقتنا الحاضر من سلائقهم أشباههم ، إذ آلهتدينا سواء السبيل ، ولعادلنا مجدنا الأثيل . ولنعرض هنا في كلمة عجي شيناً من تراجم هؤلاء الأجلاء .

« زيد بن ثابت رضي الله عنه »

من أجلاء الصحابة ، ومن فطاحل علماءهم تلقى دروسه في المدرسة المحمدية وأتقن علومها ومعارفها وتخصص في علم الفرائض فكان وحيد زمانه فيها وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشح به فلا يتركه يخرج من المدينة ، لما يحدثه خروجه من الفراغ العظيم في عاصمته ، وكان عبد الله بن العباس رضي الله عنهما على عظم قدره يأخذ بركاب بغلته ويقول « هكذا يجب أن يفعل بالعلماء والكبراء » وهذا يدلنا على ما لزيد من المكانة العالمية الممتازة وعلو منزلته المحترمة بين معاصريه ، وعلى ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين من دماثة الأخلاق ومعرفة الفضل لأهل الضل ، فلا يغمطون الناس حقوقهم ولا ينفسون عليهم ما آتاهم الله من فضله .

وكان زيد بن ثابت حصيماً في رأيه بليغاً في بيانه . وقوراً في هيئته يجادل الخلفاء في الحق ولا يخشى في الله لومة لأثم . إذا ظهر له الصواب في مسألة وقف دونها لا يعدل عن رأيه فيها « ويضرب الأمثال في تعزيرها » لم تمنعه هيبة عمر في خلافته من أن يرد عليه بما يراه الحق ويجادله فيه مجادلة صريحة ويخاطبه كما يخاطب الندد نده انتصاراً للحق وكان عمر يصغى لقوله ويعمل بإرشاده وينزل على رأيه دون أن تأخذه العزة أو يغويه الغضب .

تصدر زيد للافتاء في الموارث فكان مفتى العاصمة العمرية الذي لا يجارى وقد تقدم أن ذكرنا في خطبة عمر يوم الجابية قوله « من أراد أن يسأل عن الموارث فليسأل زيد بن ثابت » مما يدل على نبوغه في هذا الفن .

« عبد الله بن مسعود رضي الله عنه »

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان من حملة القرآن المجودين له العاملين بأوامره المنتهين بنواهيه ، وكان له مقام ممتاز بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وهو أحد من نالوا لقب (حبر الأمة) .

يقول عبد الله بن مسعود قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إقرأ على فقلت كيف أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال إني أحب وفي رواية إني أشتهي أن أسمع من غيري ، قال فقراءت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » فقال لي حسبك ، فنظرت إليه وقد اغرورقت عيناه وقال « من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » ومن هذا يتضح أن ابن مسعود كان بجانب تفقهه في الدين مقرئاً فذاً يرتل القرآن ترتيلاً

ويتلوه كما أنزل ، يشهد له بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله من أراد أن يقرأ القرآن الح . وكان يشجى بتلاوته من يسمعه فقد اغرورقت عيننا رسول الله من قراءته رضى الله عنه .

أما تبحره في العلوم الدينية فقد قال مسروق : لقد جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالأخاذ والأخاذ يروى الرجل والآخذ يروى الرجلين والآخذ يروى العشرة والآخذ يروى المائة والآخذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الآخذ . وقال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم يعنى ابن مسعود . وعلى كل فلقد كان ابن مسعود من ذوى الشخصيات القوية البارزة ورئيس القراء في زمانه . وقد فاز العراق بهجرة عبد الله بن مسعود إليه وكانت أول لبنة وضعت في المدرسة العراقية على يد هذا العالم الجليل الذى أخذ عنه العراقيون علوم دينهم رضى الله عنه .

« عبادة بن الصامت رضى الله عنه »

يقول خالد بن معدان « لم يبق من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام أحد كان أوثق ولا أفقه ولا أرضى من عبادة بن الصامت وشداد بن أوس » ذهب عبادة إلى الشام فيمن ذهب إليها من أصحاب الرسول . وكان ضليعاً بالفقه . فنشر علم الدين بالشام وعلمهم ما يحتاجون إليه منه في أمور دينهم ودنياهم وكان على جانب كبير من الحشمة والوقار وعلى يديه تخرج أكبر علماء الشام ومنه وبه تأسست المدرسة الدينية الإسلامية التى توجت فيما بعد بالأوزاعى وغيره من أفاضل العلماء .

« معاذ بن جبل رضى الله عنه »

شاب من شبان المدينة المنورة ، وأحد خريجي المدرسة الحمديدية الممتازين ، هذب فيها تهذيباً راقياً ، وأحاط بعلومها ومعارفها إحاطة تامة ، فكانت شخصيته تجمع بين نضارة الشباب ووقار العلماء ؛ وكان قليل الكلام صادقه ، يحمل بين جنبيه نفساً صافية طاهرة تتجلى معالم طهرها وصفائها على ملامح وجهه فتكسوه رونقاً وإشراقاً يجتذبان النفوس إليه فتجبه وتوقره معاً .

بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن يعلم اليمنيين ما ينفعمهم في دينهم وديارهم ، ويفصل في مشاكلهم .

وكان لمعاذ من وفرة عقله ما يؤهله للقضاء وله من المرونة الفكرية ، واستعداده الفطري في حل المشاكل القضائية ما يساعده على أن يحكم في كل قضية بما يلائم ما يحيط بها من مؤثرات مسترشداً بحكم الله فيها . وقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم « بم تقضى ان عرض قضاء » فأجابه « اقضى بما في كتاب الله قال فإن لم يكن في كتاب الله قال فقلت اقضى بما قضى به الرسول قال فإن لم يكن قال قلت اجتهد رأيي ولا آلو قال فضرب صدرى وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » (١) وكان عبد الله بن عمر يقول « حدثونا عن العاقلين ؛ قيل من هما ، قال معاذ وأبو الدرداء » مما يدل على وفرة عقل معاذ .

ذهب معاذ إلى اليمن وأدى مهمته بما يتكافأ مع عظم مسؤوليته اللقاة على عاتقه ونفخ في اليمنيين من روحه السامية ما حملهم على اتباع سبل الرشاد في غير عنف ولا

(١) طبقات ابن سعد ص ١٠٨ ج ٢ .

شدة بما يتناسب وحالتهم ، وبما عرف به من دماثة الأخلاق ، ولين الجانب ، وطيب
العشرة ، فأحبه اليمينيون من كل قلوبهم وعظموه ووقروه ، وأحلوه بينهم المسكنة
التي تليق به . وبذلك وضع نواة المدرسة اليمينية التي تتوجت فيما بعد بأساطين العلم
في اليمن . ومن أوليات معاذ أنه هو أول من سن الحلقات بقراً فيها في المساجد ، وبعد
أن فرغ من أداء مهمته باليمن عاد إلى المدينة ، ثم ذهب إلى الشام ، ولقد أثر خروجه
من المدينة إلى الشام في نفس عمر فقال « لقد أخلّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه » .
ولما ذهب إلى الشام اشترك مع عبادة بن الصامت في وضع نواة المدرسة الشامية ،
ولولا أن المنية عاجلته لكان لمعاذ من الآثار الخالدة مالا يحصى ، ولكن أراد الله أن
يكون هذا الشاب الممتلئ نوراً وحكمةً وعلماً من ضحايا طاعون عمواس الذي نزل
بالشام في خلافة عمر بن الخطاب عام ١٨ هـ رحمه الله ورضي عنه .

« عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه »

تضلع بالعلم الإسلامي تضلعاً وافياً وذهب مع أبيه عمرو إلى مصر حاملاً علوم
الشريعة الإسلامية إليها وكان ممن لا يكتفون مما علموا شيئاً ويحابه الملوك والأصحاء
دون أن يخشى في الله لومة لأئمة ، شديد الصراحة في الحق لا يبالي لمن يقوله . عند
منصرف معاوية من وقعة صفين قال عبد الله كنت أسير بين أبي وبين معاوية فقلت
يا أبت إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار بن ياسر تقتلك الفرقة الباغية
فقتلتهموه . فقال أبي لمعاوية اسمع ما يقول هذا ، فقال معاوية ألم تكن معنا؟ قال عبد الله
قلت أنا معكم ولكن لا أقاتل : فقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تعص
أباك حياً » أو كما قال .

وكان عبد الله حريصاً على ما يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عمرو استأذنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب ما سمعت منه فأذن لي فكتبت في صحيفة فكان عبد الله يسمى صحيفته تلك: الصادقة .

وعلى هذا يكون عبد الله هو أول من سنّ للناس تدوين الحديث في الصحف .
وغنه أخذ المصريون علوم دينهم ، فكان بذلك أول محرك للحركة الفكرية في مصر ، وأول من حمل لواء الثقافة الإسلامية على ضفاف النيل رحمه الله ورضي عنه .

« حسان بن ثابت رضي الله عنه »

إن كان لكل حزب على ما ترى في الوقت الحاضر صحيفة تفتاح عنه وتبث تعاليمه وتؤيده في أفكاره ، وتحبذ أعماله ، وتبذل ما قويت عليه من الجهود الأدبية ، في كل ما يكفل لحزبها الانتصار .

فإن حسان بن ثابت كان كذلك في ذلك الوقت يقوم مقام الصحيفة العظيمة في تأييد حزب المسلمين ، فكان يفتاح عنهم ، ويرد على أعدائهم بما أوتيه من قوة البيان وطلاقة اللسان ، وبذل في خدمة الدعوة الإسلامية مجهوداً أدبياً جباراً يحفظه له التاريخ بين طياته ما بقيت الأحياء على وجه الأرض .

كان حسان من نخول الشعراء وكان له من المكانة الأدبية في قلوب الناس ما جعل العرب تتعاشاه وتترلف إليه خوفاً من لسانه . فلقد استطاع حسان أن يرفع قبيلة بيت من الشعر ويخفض أخرى بمثله . وكان قومه الأنصار يحبونه ويحترمونه ويمتزون به ، حتى بلغ من اعتزازهم به أن أحلوه بينهم محل الزعيم الخطير ، يدافعون عنه إذا اقتضاه الأمر . ولا يتخلفون عن دعوته إذا دعاهم إليه ويجيبونه إلى كل

ماطاب . وكان هو بدوره يحبهم ويفتخر بهم ، ويتغنى بحمامد هم ، ويعرض نفسه
لنقمة الناس في سبيل الذب عنهم ؛ فكان يصلح لسانه الجريء على كل من أراد أن
يمس عشيرته بسوء ، ويرمى أعداءهم بهجو أخف منه الوباء والسموم ؛ وكانت تعقد
في ذلك الوقت مجتمعات خطيرة للمفاخرة ، فلم يعرف عن حسان أنه غلب في موقف
منها بل كان دائماً غلباً لمفاخره فأتراً عليهم ، موقفاً في جميع ما يقوله إلى أبعد حدود
التوفيق . فلما جاء الإسلام انضم مع قومه إلى صفوف المسلمين ، ووقف بجانب صاحب
الدعوة الإسلامية يناصره ، ويكافح عنه بجرارة صادقة ، وإيمان قوى ، وعقيدة راسخة ؛
حتى لقب بشاعر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
ينصب له منبراً يقوم عليه وينافح عنه ، وما كان شيء أشد من رشق النبل على قلوب
أعداء الإسلام من شعر حسان ؛ وقد قال فيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم
« اللهم أيده بروح القدس » .

ولأجل أن تعلم مدى مكانة حسان عند قومه وكيف كانت منزلته في قلوبهم
أسوق هذه الحكاية نقلاً عن ديوانه (ص ١٣١) وتشير نفس الحكاية إلى أن حساناً
لم يغلبه مدة حياته في الشعر أحد .

« ذكروا أن الأنصار اجتمعوا في مجلس فتذاكروا هجاء النجاشي إياهم ، فقالوا
من له فقال الحارث بن معاذ بن عفرأ : حسانا له : فأعظم ذلك القوم ، وقالوا نأى
حساناً وإن طعامه ليغلبه من ضعف حنكه ونعرضه للنجاشي فلعله يغلبه ولم يغلبه
أحد قط . لا نفعل . قال والله لا أنزع عنى قيصى حتى آتية فأذكر له . فتوجه
نحوه والقوم كلهم معظم لذلك ، حتى دق عليه الباب ، فقال من هذا ، قال الحارث
ابن معاذ ، فقال افتحى يا فريعة - وهى ابنته - لسيد شباب الأنصار . فلما دخل عليه

كلمه فقال أين أنتم عن عبد الرحمن ، قال إياك أردنا قد قاله عبيد الرحمن فلم يصنع شيئاً . فوثب وقال كن وراء الباب واحفظ ما أتى ، فغضرت به زافرة الباب فشجته على حاجبه ، قال بسم الله اللهم اخلف في رسولك صلى الله عليه وسلم ، فقال الحارث فمرفت حين قالها ليغلبنه فدخل وهو يقول :

أبني الحماس أليس منكم ماجد	إن المروءة في الحماس قليل
يا ويل أمكمو وويل أيكمو	ويلا تردد فيكمو ووعويل
هيجتمو حسان عند ذكائه	غى لمن ولد الحماس طويل
إن الهجاء إليكم ليعلة	فتحشحشوا إن الذليل ذليل
لا تجزعوا أن تنسبوا لأبيكمو	فاللؤم يبق والجبال تزول
فبنوا زياد لم تلاك فحولهم	وبنو صلاة فخلهم مشغول
وسرى بكم تيس أجم مجذر	ما للندامة عنكمو تحويل
فاللؤم حل على الحماس فاهم	كهل يسود ولا فتى بهلول

ثم مكث طويلاً على الباب يقول والله ما أبحرت ، ثم أتى على :

حار ابن كعب ألا الأحلام تزجركم	عنى وأنتم من الجوف الجماجر
لا عيب في القوم من طول ولا عظم	جسم البغال وأحلام العصافير
كأنهم قصب جوف مكاسره	مثقب فيه أرواح الأعاصير
دعوا التخاجؤ وامشوا مشية سرجاً	إن الرجال أولو عصب وتذكير
لا ينفع الطول من نوك القلوب ولا	يهدي الإله سبيل العشر البور
إني سأنصر عرضي من سراتكمو	إن الحماس نسيء غير مذكور
أنتى أباه والقي جده حبساً	بمعزل عن معاني المجد والخير

ثم قال للحارث اكتبها صكوكاً فالتفتها إلى غلمان الكتاب .
وقبل أن نستكمل القصة نقف قليلاً بالقارئ لنطلع على ما استنتجناه من هذا
الخبر وهو أن تاريخ الصحافة في الحجاز يبدأ من توزيع الصكوك التي كتبها الحارث
وأن حسان بن ثابت هو أول من فكر في وضع نواة الصحافة في بلادنا .
قال الحارث ففعلت فما صرت بنا بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان
حسانا بالنجاشي موثقاً معهم وأرغوا بيبابه ، فقال لابنته ما هذا الذي أسمع ، قالت
والله ما أدري ، قال إن أبك كان ذا شرارة في العرب بلسانه ، فانظري من طرفتي
فإن كانت إبل تموى عواء السكاب توطأ أذنانها كأنها تراجع إلى ورأها فهي إبل
مضرية ، وإن كانت تشكي تشكي العذارى تلوى أصابعها فهي إبل الحارث ابن
كعب وقد أتت بالعبد . قالت : يا أبت هي والله كما وصفت قال نادى يأيُّتَ أطم
حسان ليأتيك قومك فيحضروا . فلم يبق أحد من عالية ولا سافلة إلا وقد جاء
إلى اطم حسان ومعه سلاحه ! . فلما اجتمع الناس وضع له منبر ونزل في يده مخصره
فقام عبد الله بن عبيد المدان ، فقال : يا ابن الفريعة جئناك بابن أخيك فاحكم فيه
برأيك . ما أدخلك بين ابنيك لعباً ؛ فأتى بالنجاشي فأجاس بين يديه واعتذر واعتذر
القوم فنادى ابنته فقال البقية التي بقيت من جائزة معاوية فأنته بمائة دينار إلا دينارين
فقال دونك هذه يا ابن أخي فعرضها أهلك وحمله بغلة لعبد الرحمن ، فقال له ابن عبد المدان
يا ابن الفريعة كنا نقفخز على الناس بالعظم والطول فأفسدته علينا . قال : كلا ، أليس
أنا الذي أقول :

قد كنا تقول إذا رأينا لذي جسم يعد وذى بيان
كأنك أيها المعطى بياناً وجسماً من بني عبد المدان

ومن مواقف حسان الخالدة في الإسلام بهذا الموقف المشرف « عن ابن عباس
رضي الله عنه ، قال قدم وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم الزبير بن
ابن بدر ، وعطاء بن حجاب ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن بدر ،
وعمر بن الأهم . وكان معهم عيينة بن حصن الفزاري وكان يكون معهم في كل
سوأة ، فقال قائلهم جئناك يا محمد بخطينا وشاعرنا فاسمع منا ، فأمروا عطاء بن حجاب
فخطب ، فقال : « الحمد لله الذي له علينا الفضل الذي جعلنا ملوكاً وأعطانا شرفاً
ومالاً ، وجعلنا أكثر أهل المشرق أموالاً وسادة ، وأكثرهم عدداً ، وأيسرهم عدة
من مثلنا أولسنا رؤساء الناس وأفضلهم فمن يفاخرنا فليعد مثل ما عددنا وإنما لو شئنا
لأكثرنا ولكن نستحي من الإكثار فأتوا بقول أفضل من قولنا أو بأمر أفضل
من أمرنا » . ثم جلس وأقام الزبير بن فأنشد شعره :

نحن الكرام فلا حتى يفاخرنا	فيما الملوك وفيما السادة الرفع
تلك المكارم حزناتها مقارعة	إذا الكرام على أمثالها اقترعوا
كم قد نشرنا من الأحياء كلهم	عند النهاب وفضل الغر يتبع
وننحر الكوم عبطاً في منازلنا	للتنازلين إذا ما استطعموا شبعوا
ونحن نطعم عند المحل ما أكلوا	من العبيط إذا لم يظهر الفرع
وننصر الناس تأتينا سراهم	من كل أوب فتمضى ثم تتبع

حتى فرغ من قصيدته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس

« قم فأجب » فقام ثابت فقال :

« الحمد لله الذي السموات والأرض من خلقه قضى فيهما أمره ووسع كل شيء

علمه ، فلم يكن شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدره أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى لنا من خير خلقه رسولاً أكرمه أباً ، وأحسنه رأياً ، وأصدقه حديثاً ، فأُنزل عليه كتابه واثمنه على خلقه فكان خيرة الله من عباده ، ثم دعانا للإيمان فآمن به المهاجرون من ذوى رحمه أصبح وجوهاً وأفضل فعلاً ، وكنا أول من أجابه واستجاب له حين دعانا ، ففحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فقيل له قد جاء وفد تميم بخطيب وشاعر وقد دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتجيب شاعرهم قال : قال حسان فأقبلت وأنا لا أدري ما يقول شاعرهم وأنا أهيب أبياتاً قبل أن أصل إليهم وأنا أمشى نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول :

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على أنفراض من معد وراغم
منعناه لما حل وسط بيوتنا بأسيافنا من كل باغ وظالم

قال فلما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام شاعرهم فقال ما قال
فقلت :

إن الذوائب من فهر وأخوتهم قد بينوا سنة الله تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدومهم أو حاولوا النفع من أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق حقاً شرها البدع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
إن كان في الناس سباقون بعدهم
ولا يضمنون عن مولى بفضلهم
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
كم من صديق لهم نالوا كرامته
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا
فإن في حربهم عداوتهم
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالها
لا فرح إن أصابوا من عدوهم
كأنهم في الوغى والموت مكنتع
إذا انسبنا لقوم لا ندب لهم
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
أهدى لهم مدحى قلب يوازره
فإنهم أفضل الأحياء كلهم
لا شك ولا ريب . . فتفرق القوم حين تفرقوا وهم يقولون ما يلاعب بهذا
عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يصيبهم في موضع طبع
في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
لا يطمعون ولا يردبهم الطمع
ومن عدو عليهم جاهد - جزع
فما ونى نصرهم عنه وما تزعوا
أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
أهل الصليب ومن كانت له البيع
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
شراً يخاض عليه الصاب والسلع
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
أسد ببيشة في أرساغها فدع
كما يدب إلى الوحشية الورع
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فيما يجب لسان حائك منع
إن جد بالناس جد القول أو سمعوا
لا شك ولا ريب . . فتفرق القوم حين تفرقوا وهم يقولون ما يلاعب بهذا

الرجل ، ما خطبينا كخطيبه ولا شاعرنا كشاعره ، فلما أراد القوم الخروج أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم .

وأن هذه القصيدة الخالدة التي جرت على لسان حسان رضى الله عنه لتدلنا أبلغ الدلالة على تلك الصفات الكريمة التي اتصف بها أسلافنا الأماجد ، فحق لهم بأن يفاخروا بها ويتحدثوا عنها ، وإنها لأفضل ما يتحلى به الرجال ، فاسمع إلى حسان وهو يقول :

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم في فضل أحلامهم عن ذلك متسع
وتأمل ممي روعة هذا البيت ، وانظر إلى هذا السمو الإنساني الذي ارتفع بتلك النفوس العظيمة والعقول الكبيرة إلى حقيقة التسامح فلا تحقد ولا يغيرها شيء ، وأنهم الأعفة الذين أشاد الوحي بعقمتهم فلا يطمعون ولا يردبهم الطمع . فحبذا لو تأسينا بهذه الأخلاق الفاضلة في الوقت الحاضر . فتعادلنا تلك الذكرى العظيمة الطيبة والسيرة الجليلة المدوية ، ويصبح الحجازيون - كما كانوا - دعاة الخير والسلام ويستعيد لهم أهل الصليب كما استعادوا لأجدادهم

وبتهم حسان بالجبن . ولكن بعضهم ينفى عنه هذه التهمة مستدلاً أن حساناً كان يهاجى قريشاً ويذكر مثالبهم ولم يبلغنا أن أحداً عيرّه بالجبن . ويقول السكبي «إن حساناً كان لسناً شجاعاً» إلى آخر ماقال . وعلى كل فإن أبرر مواقف حسان في نصرة الإسلام كانت مواقفه وحملاته الأدبية المشهورة وبها كتب له الخلود رضى الله عنه .

« خباب بن الارث رضى الله عنه »

وهذا مظهر من مظاهر العظمة ، وشكل من أشكالها المندسة في الأفراد العاديين الذين يزخر بهم المجتمع الحجازى في ذلك الوقت من أبناء الطبقة الفقيرة التى لا تنتمى إلى البيوتات الرفيعة ، وليس لهم من العصبية والثراء ما يجعل لهم مكاناً ملحوظاً بين مواطنهم .

وهذا اللون من ألوان العظمة يرينا أن العظمة ليست منحصرة في أناس دون غيرهم . وإنما هى سر يودعه الله في نفوس من اصطفاه من خلقه ، وأن عظمة العظيم لا يحجب ظهورها فقر ، ولا يستر علامتها ادقاع ، وليست العظمة وقفاً على أولئك الذين تصطف لهم الجنود ، وتحميمهم الجماهير ، وتخضع لهم الرقاب ، وتدين لهم الشعوب ولكنها أروع وأعمق وأصل عند أولئك الذين تخضع لهم القلوب قبل الجسوم ، وتدعن لهم العقول قبل التقاليد لما لهم من العظمة الأصيلة غير المتصنعة .

وليست هى وقفاً على أولئك الذين يتصدرون المجالس ، ويرأسون المجتمعات ويحترمهم الناس فيقومون لهم إذا قاموا ، ولا يجلسون إلا إذا أذنوا ولكنها أمكن وأسمى عند أولئك الذين تشخص إليهم البصائر قبل الأبصار وتعترف لهم النفوس في قرارتها بأنهم القدوة التى يجب أن تمشى البشرية وراءها .

وليس كل العطاء هؤلاء الذين زاهم ، ونسمع بهم ، ويحدثنا التاريخ عنهم ممن طار صيتهم في الآفاق ، ولهجت بهم الألسنة في مختلف الأنحاء ، بل إن في أفراد الناس ، وفي زوايا التاريخ عطاء أخطأتهم الشهرة ، وأغفلت ذكركم الأيام لانزواؤهم عن الأعين ، ولكنهم في الواقع عطاء لا يقل الإعجاب بمظمتهم عن الإعجاب بعظمة

الملوك فوق عروشهم ، وعن الإعجاب بعظمة الزعماء في زعامتهم ، وعن الإعجاب بعظمة الساسة في دهائهم وحنكتهم ؛ وجدير بمشاق العظمة وطالبيها أن يتلمسوها لأنفسهم من خلال أخلاق وعزائم هذه الطبقة إذا أعياهم نوالها من جهة أخرى ، فإن في عظمة هؤلاء الذين أزرى بهم الفقر ، وأضرت بهم الفاقة ، واستخف بهم الناس ما تتضاءل بجانبه نفوس كثير ممن تحيط بهم الأتباع وتحف بهم الموالى ، ويتقبلون في النعيم الكاذب ، ويتملقهم الناس لعظمتهم الجوفاء في مظهرها الخلاب المصطنع .

أما هؤلاء الذين تنبعث عظمتهم من وهج نفوسهم العالية ومن حرارة إيمانهم القوى بعقيدتهم الراسخة ومبدهم الشريف ، لا يلاشى عظمتهم المنبعثة من مثل ذلك إرهاق ، ولا ينتقص من حدودها عقوق ، ولا يضير أصحابها ما يمتنون به في هذه الحياة من شقاء وبؤس ، ولا يخل بمكانتهم ما يمتورم فيها من بلاء ومحن ، ولا يستطيع الاضطهاد والتعذيب أن ينزلاهم عن كرسی عظمتهم . فلقد أوتوا حظاً وافراً ونصيلاً وافية من الصبر والاحتمال نذرعوها لمقابلة ألوان الأهوال التي يلاقونها في سبيل العقيدة التي رأوا فيها سعادتهم الروحية ، واحتفظوا بكيونوتهم في المجتمع حتى أثبتوا وجودهم في الأحياء وأرونا كيف يجب أن يبرهن الإنسان مادام إنساناً على إنسانيته فلا يندمج في غيره ولا يتأثر بما يحيط به مما لا يعود عليه بنفع ما .

وما العظمة الحقّة إلا عرفان الإنسان نفسه واحتفاظه بحقوقها في الحياة كاملة غير منقوصة وبرهنته بشتى البراهين على ما تنطوى عليه أفضاله من عقيدة راسخة تؤيدها عزيمته ماضية ، وما تحويه تلافيف دماغه من عقلية نيرة تعرف الطيب من الخبيث وتميز الحسن من القبيح مستقلة في تفكيرها فلا تتأثر بالأهواء ولا تضطرب عند مختلف الآراء .

فن هؤلاء الذين أودع الله في قلوبهم تلك العظمة وآتاهم من الاحتمال والجلد
 وقوة اليقين ما يصمدون به لصنوف الأذى دون أن يعدلوا عما حملوا أنفسهم عليه من
 اتباع أمثل الطرق التي اهتمتوا إليها ، واقتنعوا بها رغم المعارضين والمعادين « خباب
 ابن الارث رضى الله عنه » . . هذا الرجل المستضعف البائس الفقير الذى لا يملك غذاء
 يومه ولا يقيم له الأحياء بينهم وزنا ، ولا يعيرونه التفاتا ، ولا يأبه بأمره أحد ،
 يحمل بين جنبيه نفساً عالية وعزيمة ماضية تتضائل دونها العزائم ؛ فإن عظمته أبت
 إلا أن ترج به فى أحضان حياة مليئة بالمهالك محفوفة بالأخطار ، فأثرها على عيشه
 الهادى فى ظل حياته الوادعة ؛ ولم يحبس الفقر ، ولم تثنه قلة الأنصار ، ولم تصده
 حقارة منزلته فى المجتمع عن إعلان رأيه فيما اعترمه لنفسه واختاره لراحة ضميره ،
 فاعتنق الإسلام على بؤسه وضره وفاقته وفقره ، وهو عالم بما سيستقبله من الإحن
 والحن فى إقدامه على ما يخالف ما أجمع عليه أشرف قومه وسروات الناس ، من
 نكرانهم لهذا الأمر وتنكرهم لمعتنقيه ، فلم يبال بكل ذلك وأرانا فيه الرجل الحقيق
 بالإكبار والإعجاب . دعى إلى ترك دينه فلم يجب ، فاضطهد وعذب بعد أن أغرى ووعد
 بحلو الأمانى فلم يثن وتشبث بعقيدته ، فاستغل الكفار ضعفه وقلة ناصره فأنزلوا به
 أشد النقمة فكانوا يضربونه أينما وجد وحيمًا حل بالعصى والسياط ، وبالغوا فى تعذيبه
 وتقننوا فى إبلامه وإحراجه فأوقدوا له النار ووضعوه فيها على أن يترك ما دخل فيه ،
 فلم يزد ذلك إلا إيمانًا وتبئيتًا . حتى أذن الله لرسوله بالهجرة فأذن بها لأصحابه فهاجر
 مع زملائه المسلمين إلى المدينة المنورة دون أن ينزل عن عقيدة اعتقدها ومبدأ اعتنقه
 ودين هداه الله إليه .

وقد عرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلده واحتماله وصبره وتشبته
بدينه ، فكان بينهم أخاً كريماً ، وزميلاً محترماً . يقول الشعبي :

« دخل خباب بن الارت على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئه وقال : ما على
الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد ، قال له خباب : من هو يا أمير
المؤمنين ، قال : بلال ، قال فقال له خباب : يا أمير المؤمنين ما هو بأحق مني ، إن
بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به ولم يكن لي أحد يمنعي فلقد رأيتني يوماً
أخذوني وأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ثم وضع رجل رجله على صدري فما انقيت
الأرض أو قال برد الأرض إلا بظهري . قال ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص » (١) .

بهذا الاحتمال العجيب ، وبهذا الثبات النادر ، وبهذه المحافظة على المبدأ ، والتشبث
بالعقيدة استطاع خباب أن يجالس الخليفة على متكئه ، ويقف في مصاف العظماء ،
ويسطر اسمه في عداد الخالدين رضي الله عنه .

أفلا يجب على تاريخ العظماء أن يضع هذا العظيم الحجازي على أقل تقدير جنباً
إلى جنب مع أبطال حرية الفكر الذين ثبتوا على عقائدهم رغم التعذيب والاضطهاد .

(١) طبقات ابن سعد ص ١١٧ ج ٣ .

« سعد بن عبادة وابنه قيس رضى الله عنهما »

كان سعد بن عبادة من أشرف المدينة ومن أثريائها المعدودين ، وكان من ذوى النفوس الكبيرة ومن الأفراد القلائل الذين يعرفون قيمة الحياة ، فيجمعون ثراهم بين يدي المصلحة العامة ، وينفقون أموالهم فيما فيه خيرهم وخير المجتمع الإنسانى فينفعمون وينتفعون فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة حسن الثواب ، وينالون بذلك الحمد ، ويحق لهم به الخلود .

كان سعد مثرياً وكانت ثروته ثروة للأمة ، لا كأولئك الذين يختزنون الثروات ولا يصرفونها إلا على كل ما يضمن لهم عيشاً مرفهاً ، دون أن يكون للمجتمع الذى يحتضنهم ويحتضن ثراهم نصيب فيه تحتضنهم وتحتضن ثراهم نصيب فيها ؛ فكان رضى الله عنه يحمل الكسل ، ويواسى الضعيف ، ويطعم الفقير ، ويسارع إلى تعضيد كل عمل إنسانى ، وتشجيع كل مشروع يمود بنفعه على الأمة والوطن . وقف ما له وجهوده على ذلك ، لا تنزل نازلة بالأمة إلا وسعد أول من يتقدم لتخفيف وطأتها فيتبرع بكرم وسخاء فائقين ، وقلماً تجد عملاً ذا شأن إلا وسعد بن عبادة فيه أثر عظيم ، حتى عد فى طليعة أهل النبيل والنجدة ؛ وأكبره الناس وأعجبوا بحصاله وفعاله فأحبوه وسودوه ، فترجم قومه ومنحته عشيرته ووزوؤهم ودمهم ، وأسلموه قيادهم ، لماشتهر به من الفضل والسؤدد ، والكرم ، وحسن الرأى ، وكان مع كل ذلك لا يبنى عن السعى وراء كماله كماله محمداً ، ويوسمه بمنقبة ، ويكسبه مفخرة ؛ فلما جاء الإسلام كان سعد من السابقين إلى اعتناقه ، وساهم بأكبر نصيب فى إعلاء شأن الدعوة الإسلامية .

وورث ابنه قيس منه صفاته وأخلاقه فلم يختلف عنه فى شىء وكان له من الأريحية

ما يثير الإعجاب والإكبار به ، خرج ذات مرة في سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحاربة أناس من المشركين فنفذ طعام الصحابة واشتد بهم الجوع حتى أكلوا الخبط ، ورأى قيس ما حل بالجيش من المجاعة فدفعته الأريحية إلى أن ذهب إلى بعض الأعراب في تلك النواحي وطلب منهم أن يبيعوه جزراناً بتمر يؤديه لهم بالمدينة ، فطلبوا منه أن ينتسب فانتسب لهم ، فقال له اعرابي من جهينة عرفت نسبك وباعه من الجزران ما أراد ، فأشهد قيس على نفسه نفرأ من الصحابة فشهدوا وامتنع عمر ابن الخطاب من الشهادة لعلمه أن قيساً لا مال له وإن كاك هناك مال فإنما هو لأبيه سعد فلما رأى الجهيني امتناع عمر من الشهادة قال : ما كان سعد ليقصر بابنه وأرى وجهاً حسناً وفعلاً شريفاً ، وأخذ قيس ينحر للجيش كل يوم ، فلما رأى أبو عبيدة وكان أمير السرية أن قيساً لا يكف عن النحر قال عزم عليك أن لا تنحر أريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ، فقال له قيس : يا أبا عبيدة أرى أبا ثابت - يعني أباه - يقضى ديون الناس ، ويحمل الكل ، ويطعم في المجاعة ، ولا يقضى عنى تمرأ لقوم مجاهدين في سبيل الله ، فأوشك أبو عبيدة أن يلين ويتركه لسأته ، لولا أن عمر بن الخطاب كان كلما أن أبو عبيدة يقول له اعزم فما زال أبو عبيدة يعزم على قيس حتى كف عن النحر مرغماً وما بقي من الجزران جعلها للجيش يتعاقب أفراده ركوبها ؛ وبلغ خبر هذه المجاعة سعداً فقال : إن يكن قيس كما أعرف فسينحر لهم ، فلما عاد إلى المدينة سأل سعد ابته ، فقال : ماذا صنعت في مجاعة ، قال : نحررت ، قال : أصبت ؛ ثم ماذا ، قال نحررت ، قال : أصبت ؛ ثم ماذا ، قال : نحررت ، قال : أصبت ؛ ثم ماذا ، قال : نهرت ، قال : ومن نهاك ، قال : أبو عبيدة أميري ، قال : ولم ، قال : زعم أنه لا مال لي وإنما المال لك ، فقال سعد لابنه : لك أربع حوائط أدناها تجد منه خمسين وسقاً .

وقدم الإعرابي مع قيس فأوفاه أوسقه ، وحمله ، وكساه ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فعمل قيس فقال : « إن الجود من سمت أهل ذلك البيت » .

ولقيس فيما بعد ذلك كثير من الأعمال الدالة على نبهه وكرمه ، وقفت به مرة عجوز وقالت : أشكو إليك قلة الجرذان ببيتي فقال : ما أحسن هذا السؤال لأكثرن جرذان بيتك وملاً بيتها طعاماً .

وامتاز قيس أيضاً بالدهاء فكان سياسياً ماهراً ومن ذوى المكيدة فى الحروب مع النجدة والبسالة يقول الدحلان « من وقف على ما وقع بين قيس ومعاوية رضى الله عنهما حينما ولاه على كرم الله وجهه على مصر لرأى العجب العجاب من وفور عقله » (١) .
ولقد اجتهدت فى أن أطلع على شىء من ذلك وأتحدث به إلى القراء الكرام فلم يصل إلى يدى شىء من ذلك - (٢) وعلى كل فان كلام الدحلان يدلنا على ما كان لقيس من البراعة فى هذا المضمار وإلا لما استطاع أن يقف أمام معاوية ذلك الرجل الممغن فى الدهاء وبجاريه فيه ، ويقول قيس عن نفسه « لولا الإسلام لمسكرت مكرراً لم تطقه العرب » .

وبالجملة فلقد كان قيس من الأفضاذا الذين لا يقاس بهم غيرهم لخطورة شأنه ، طلب عمرو بن العاص أثناء فتحه مصر مدداً من عمر بن الخطاب ، فبعث إليه قيساً بمفرده وكتب له ما معناه « إنى بعثت لك رجلاً بألف هو قيس بن سعد بن عبادة » وعمر من قد عرفنا صدق فراسة وصحة حدس وحسن تقدير للرجال وهو أجل من أن يلتقى القول على عواهنه وأكبر من أن يكيل المدح جزافاً لأى رجل كائناً من كان .

(١) السيرة النبوية للدحلان .

(٢) ولم ينوه الدحلان عن الكتاب الذى فيه البحث ليرجع إليه الإنسان فمعدرة .

« أبو موسى الأشعري رضى الله عنه »

لقد أوتي أبو موسى الأشعري رضى الله عنه بجانب ما أوتيته من العلم ، صوتاً حسناً يشجى به كل من سمعه فلقد كان صحابياً جليلاً ، وعلماً من أشهر علماء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ومقرئاً فذاً يندر أن يوجد مثله في حسن صوته بين الصحابة : سمع رسول الله صلى الله عليه قراءة أبي موسى فقال « لقد أوتي هذا من مزامير داوود » .

وقال أنس إن أبا موسى الأشعري قام ليلة يصلى فسمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم صوته وكان حلو الصوت فممن يسمعون فلما أصبح قيل له ان النساء كن يستمعن فقال لو علمت لحررتكن تحبيراً ولشوقتكن تشويقاً^(١) .

ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب البصرة فأقام أميراً عليها مدة خلافته والناس راضون عنه معجبون بمدله قيل فيه ما كان يشبه كلام أبي موسى إلا بالجزار الذى لا يخطئ الفصل . ويروى عنه أنه قال لا ينبغي للقاضى أن يقضى حتى يتبين الحق كما يتبين الليل من النهار^(٢) .

وكان أبو موسى يقوم بتعليم الناس القرآن وهو أمير رغم مشاغل أمارته وأظن أن عمر لم يوص له بإمرة العراق بعد وفاته بمدة أربع سنين إلا من أجل ذلك حتى يكثر حملة القرآن في تلك النواحي .

(١) طبقات بن سعد جزء ٢ ص ١٠٦

(٢) طبقات بن سعد .

وكان رضى الله عنه شديد الزهد شديد الجياء من الله تعالى فقد كان إذا أراد أن يقتسل لا ينتصب واقفاً حياء من ربه ولعمري ان هذا هو الإحسان فى العبادة وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولما عزلته عثمان بعد مضى الأربعة السنين كما وصى بذلك عمر كتب إليه «انى لم أعزلك عن عجز ولا خيانة وإنى لأحفظ قيد استعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر أياك وإنى لأعرف فضلك وإنك لمن المهاجرين الأولين ولكن أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر وقد أمرته أن يعطيك « ثلاثين ألف درهم » فقال أبو موسى والله لقد عزلنى عثمان عن البصرة وما عندى دينار ولا درهم حتى قدمت على أعطية عيالى من المدينة وما كنت لأفارق البصرة وعندى من مالهم دينار ولا درهم ولم يأخذ من ابن عامر شيئاً^(١) .

وأن رجلا بلى البصرة المعلوم أمر غناها ردها من الزمن فلا يطمع فى شىء منها ولا يستأثر لنفسه بشىء من خيراتها لجدير بأن يكون مثلاً أعلى للاقتداء به فى العفة والنزاهة . وان أمة سمت نفوس أبنائها حتى بلغ الأمر بأمرائها أن يأتيهم أمر العزل وليس بأيديهم دينار ولا درهم لقميئة بأن يستولى سلطانها على القلوب والنفوس قبل أن يستولى على المدائن والحصون .

(١) تفلا عن طبقات بن سعد « ج ٥ ص ٣٢ »

«أبي بن كعب رضى الله عنه»

كان أبي بن كعب أقرأ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن فقد قال الرسول عليه السلام «اقرأ أمتي أبي بن كعب» وقال عمر أبي اقرؤنا. فتى يكون منّا من يقرأ القرآن مثل أبي بن كعب فى هذا الزمان؟؟ .

حبذا لو يعيد التاريخ نفسه ويكون فى الحجاز بين اليوم من هو أقرأ أمة محمد بعد أبي بن كعب للقرآن المجيد، وحبذا لو نرى فىنا من يجبرنا بقراءته تحبيراً . مثل أبي موسى الأشعري ويشوقنا بتلاوته كلام الله إلى الله تشويقاً .

« عبد الله بن حنظلة الغسيل^(١) »

يرى الناظر فى تاريخ الأمة الحجازية من ألوان العظمة وأصناف البطولة ما يجعله يؤمن بأن هذه الأمة لم تدع سبيلاً من سبل الحياة الشريفة إلا ولجته وترك لها فيه أثراً محموداً وذكريات خالدة .

فإن الحجاز لم يعدم فى أدواره التاريخية من أبنائه من يضيف إلى صفحاته البيضاء الناصعة صفحة جديدة بالإعجاب خليقة بالتقدير يرتفع بها رأسه عالياً . فما من ميدان من ميادين الجهاد والكفاح فى سبيل الغايات النبيلة إلا وله فيه جولات بارزة لا يمكن لأمة من الأمم أن تعير الحجاز بقصوره فيه أو تتحداه بشيء لم يكن لأبنائه فيه يد . فإن كانت الأمم الحية اليوم تتور وتتظاهر إذا أحست بإحجاف أو غمط يراد بها

(١) استشهد حنظلة بأحد فغسلته الملائكة فكانوا يقبون أبناءه بأبناء الغسيل .

من قبل من بأيديهم أمرها في بعض ما لها من حقوق وواجبات فإن تاريخ الحجاز مليء بأمثال هذه الثورات الدالة على الشعور الحى المتأصل فى نفوس الحجازيين وما كانوا يريدون بثوراتهم تلك التى كانوا يخوضون غمارها سوى حياة شريفة يرفرف عليها علم العدل والإنصاف وتسودها روح الفضيلة والتقوى وكانت مواقفهم فيها مواقف مشرفة خالدة وما كانت كل ثوراتهم إلا استنكاراً لباطل أو طلباً لحق فتارة يبوؤن بالنصر والفوز ، وأخرى يذهبون شهداء مطالبهم .

وأهم ثورة كانت فى تاريخهم ثورتهم على يزيد بن معاوية ، وأشهر مواقفهم موقفهم الرائع فى يوم الحرة . فلقد اختاروا الموت على عيش الذل والهوان تحت ظل راية يزيد .

وقد سبق الكلام عند ذكر معاوية رضى الله عنه على ما لاقى من قوة شكيمتهم فى الإمتناع عن إقراره على ما يريد من ترشيح ابنه يزيد لولاية العهد وعلى ما عمله معاوية من الدهاء والحنكة حتى أرضخ جل الناس لمشيئته ثم لما مات معاوية وآل أمر الخلافة الإسلامية إلى يزيد ما لبث أن رأى نفسه السيد المطاع والحاكم المطلق حتى استخف بأمر المسلمين وتهاون بأمور الدين وتعلق بأذيال الغايات وانتهك الحرمات واستأثر بالنيء وبعثر أموال الدولة على ملاذه وشهواته وعبث بالأمة التى صير الله إليه أمرها ورفعها عليها وحكمه فيها . ونجى من حوله ذوى الفضل والحجى وقرب إليه كل محتلس أفاك ميال مع الهوى . فتحركت حفيفة الناس عليه وجاء مقتل الحسين ابن على رضى الله عنهما على تلك الصورة التى أسلفنا فكان من أكبر البواعث فى تهيج الخواطر وثورة النفوس على تحطيم قيود الحكم اليزيدى .

وكانت المدينة المنورة فى طليعة الناقمين فقد رأى المدنيون وكلهم من أبناء المهاجرين

والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السكوت على أعمال يزيد رضاه
منهم بالذل وإقرار على أنفسهم بالعبودية وتشجيع لولاة الجور على الإندفاع وراء
أهوائهم وما يزينه لهم الشيطان من أعمالهم .

وما كان لو كان آباؤهم في الحياة أن يرضوا بعمل يزيد أو يقروه عليه وكيف وهم
بالأمس كانوا يبذلون دماءهم رخيصة في استخلاص العالم من كسروية كسرى
وقيصرية قيصر لينسموهم نسيم العدل والحرية تحت راية الملة الحنيفة السمحاء . وان
قوماً لا يرضى آباؤهم لغيرهم حياة الخسف لقمينون بأن لا يرضوها لأنفسهم ،
فأجمعوا أمرهم على الثورة ضد يزيد تحت زعامة عبد الله بن الغسيل فأدى واجبه
كأحسن ما يؤدي قائد ثورة واجبه فيها دون أن يتطرق إلى نفسه وهن أو يتسرب
إلى قلبه جبن . ولنعتمد على ذكر وصف تلك الثورة وموقف هذا الزعيم الثائر فيها على
على ما كتبه صاحب الطبقات في صفحة ٣٧ من الجزء الخامس .

قام عبد الله بن حنظلة في الناس فقال يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له فوالله
ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرى بالحجارة من السماء ، أن رجلاً ينكح الأمهات
والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس
لا بليت الله فيه بلاءاً حسناً ، فتوائب الناس يبأيعون على الموت . فلما دنا أهل الشام من
وادي القرى صلى عبد الله بالناس الظهر ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها
الناس إنما خرجتم غضباً لدينكم فأبلو الله بلاءاً حسناً يوجب لكم به مغفرته ويحل
عليكم رضوانه قد خبرني من نزل مع القوم السويدياء وقد نزل القوم ذا خشب ومعهم
مروان بن الحكم والله إن شاء محينه بتقضه المهدي والميثاق عند منبر رسول الله صلى الله
عليه وسلم . فتصايح الناس وجعلوا ينالون من مروان ويقولون الوزغ ابن الوزغ وجعل

ابن حنظلة يهدئهم ويقول: إن الشتم ليس بشيء ولكن أصدقوهم اللقاء والله ما صدق قوم قط إلا حازوا النصر بقدرة الله، ثم رفع يديه إلى السماء واستقبل القبلة وقال اللهم إنا بك واثقون بك آمننا وعليك توكلنا وإليك ألقأنا ظهورنا، ثم نزل، وصبح القوم المدينة فقاتل أهل المدينة قتالاً شديداً حتى كثرهم أهل الشام ودخلت المدينة من النواحي كلها فلبس عبد الله در عين وجعل يحض أصحابه على القتال فجمعوا يقاتلون ويقتل الناس فلا ترى إلا راية عبد الله بن حنظلة ممسكا بها مع عصابة من أصحابه وحانت الظهر فقال لمولى له احم ظهري حتى أصلي فصلى الظهر أربعاً متمكناً فلما قضى صلاته قال له مولاه والله يا أبا عبد الرحمن ما بقي أحد فعلام نقيم، ولو أوه قائم ما حوله خمسة فقال ويحك إنما خرجنا على أن نموت ثم انصرف من الصلاة وبه جراحات كثيرة فقتل السيف ونزع الدرع ولبس ساعدين من ديباج ثم حث الناس على القتال وأهل المدينة كالأنعام الشرد وأهل الشام يقتلونهم في كل وجه فلما هزم الناس طرح الدرع وما عليه من سلاح وجعل يقاتلهم حاسراً حتى قتلوه. وانكشف الناس. رحمه الله (١).

(١) وكان عمره لما قتل ستين سنة إلا خمسة أشهر فقد ولد عبد الله بن حنظلة بعد الهجرة بثلاث سنين وخمسة أشهر سنة ٦٣ هـ وعلقت به أمه ليلة غزوة أحد فإن أباه حنظلة لما أراد الخروج إلى أحد وقع على أمه جميلة بنت عبد الله بن سلول فعلمت به واستشهد حنظلة في الواقعة وكان عبد الله صالحاً ورعاً يصوم الدهر وما رثى رافعا رأسه إلى السماء أخباتاً ولما مر مسرف قائد جيش يزيد على القتلى كان معه مروان فرأى عبد الله بن حنظلة وهو ماد أصعبه السبابة فقال مروان أما والله لئن نصبتها ميتاً فلطالما نصبتها حياً وقال عبد الله بن أبي سفيان سمعت أبي يقول رأيت عبد الله ابن حنظلة بعد مقتله في النوم في أحسن صورة معه لواؤه فقلت أبا عبد الرحمن أما قتلت قال بلى ولقيت ربي فأدخلني الجنة فأنا أسرح في ثمارها حيث شئت فقلت أصحابك ما صنع بهم قال هم معي حول لوائي هذا الذي ترى لم يجلب عقده حتى الساعة قال ففرغت من النوم فرأيت أنه خيراً رأيته. نقلنا عن طبقات ابن سعد.

« مروان بن الحكم »

وهذا رجل من رجالات الحجاز نفض عن نفسه الخمول ووثب وثبة قوية سنمته ذروة المجد الرفيعة وأسمفه الحظ فاستاق الملك إليه سوقاً وأورثه بنيه من بعده وسطر اسمه مع العطاء الذين لا يستطيع الإنسان أن يربهم دون أن يعطيهم ما يجب لهم من مراسم الإجلال والإكبار طوعاً أو كرهاً ، وحق لمروان أن يكون في مصاف رجالاتنا الذين لا يمكن لأبناء الأمة الحجازية إلا أن ينظموه في سمط طراز عظامها الذين تزكوا لهم في الحياة دويماً يتردد أصدأؤه على الأجيال المتعاقبة .

كان مروان بن الحكم لا يزيد عن كونه رجلاً عادياً إذ ليس له من الأعمال ما يلفت الأنظار إليه سوى أنتمائه إلى بيت من البيوتات الرفيعة في قريش وحسب . فلما آل أمر الخلافة الإسلامية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه - وكان مروان هذا يمت إليه بصلة القرابة - التحق ببلاطه وكان لديه من حسن الاستعداد ما يؤهله لأن ينال من عثمان وظيفة لها خطرهما في تصريف شؤون الدولة ، فكانت وظيفته عنده أشبه ما تكون بوظيفة رئيس الديوان الملكي لوقتنا الحاضر ، وأظهرت هذه الوظيفة التي تقلدها مروان مواهبه وملكاتة الكامنة فيه وأسفرت عن خصائصه وأخلاقه ، وبدأنا نرى من تصرفاته وأعماله ما يدلنا على أن مرواناً كان رجلاً جريئاً كثير المطامع ولوعاً بالشهرة لا يبالي في سبيل غاياته ماذا يكتسح للوصول إليها وأقدم على أمور لا يستطيع الإقدام عليها غيره فقد لعبت أصابعه الخفية في ماجريات الأمور السياسية لعباً أحدث تأثيراً بالغاً في النفوس ؛ ولا يهمنا إن كان ذلك التأثير سيئاً أو حسناً فلسنا الآن بصدد نقده ومحاسبته بل المهم أن نرى مرواناً يقوم بتمثيل أدوار

رهيبة تنوء بحمل أعبائها هامت عصابة من فحول الرجال ، وإلى هذه الأعمال يعزى المؤرخون أسباب الضجة التي اكتتفت عرش الخلافة العثمانية وعلى كل فان مروان قد ظل محتفظاً بوظيفته إلى أن أدت النتيجة إلى قتل الخليفة الصالح ولم يمتوره وهن ولم تكن نفسه إلى الوجوم والانكماش لمقتل عثمان ، بل نراه يقوم بواجب الدفاع عنه ، فقد برز من الدار يطلب قتال المحاصرين ، فضرب ضربة بالسيف خراً منها على وجهه ، ولولا أن أمه من الرضاع قالت لضاربه حينما أراد أن يحتز رأسه إن كنت تريد قتله فقد قتلته فما تصنع بلحمه ان تبضعه ، فاستحيا منها لطوبت صحيفته ولم يطالعنا من أعماله على غير ذلك .

ولكن الأقدار أرادت أن تحتفظ بحياته لتجلسه على عرش الملك في يوم ما وترفعه على الناس حتى لا يرى فوقه أحد ، ولذلك أنجته من موت كان منه مروان على قاب قوسين أو أدنى ، ثم يعاود مروان حياة المناضلة والكفاح مرة أخرى بعد شفائه من جراحاته ويخرج إلى البصرة فيمن خرج إليها للمطالبة بدم عثمان وقاتل قتالا شهيداً وكادت الجراحات التي أصابته في وقعة الجمل تودي بحياته ، ولكنه أوتي من المناعة الجثمانية ما جعل جسمه يتغلب على الجراحات إلى أن دملها وقام معافى سليماً وأفلت من الموت للمرة الثانية ، ورأى مروان الجند الذي كان يحارب فيه قد انهزم فتوارى حتى أخذ له الأمان من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فاضطر لمبايعته فبايعه وقفل راجعاً إلى المدينة وقبع بداره فيها نافضاً يديه من الأمر الذي كان يحوكه لنفسه وغلب عليه واستقر في روعه أنه ما بآء من جهاده ومكافحته للأحداث التي اعتورته إلا بلواعجه وزفراته التي كانت تتردد أصدائها بين حوائط منزله وغفل عما كانت تمهده لمستقبل حياته الأقدار .

إن الأعمال التي باشرها مروان ، والأدوار التي مثلها ، والأمور التي عاجلها ، وما قام به من مختلف التصرفات لا يمكن أن يغفلها الناس . فقد تركت له شخصية استحوذت على جزء غير يسير من رؤوس بني أبيه من الأمويين ومن يليهم من رؤوس الأجناد والأنباغ . فلما تم اقتناص الأمر لمعاوية واعتلى منصة الحكم لم يغفل عن مكانة ابن عمه مروان فولاه المدينة ثم عزله ثم أعاده ثم عزله مرة أخرى . وكان مروان في كل ذلك يرى أن الأمر قد أخطأه وأن الخلافة قد فرت من بين يديه . فليتسلم إذاً لكل ما تأتي به الأيام غير أن صدره المليء بالمطامع يجعله لا يركن إلى الخمول ويذر نفسه لا تستطيع طعم المحايدة . لذلك نراه حينما ثار أهل المدينة على يزيد وجلوا الأمويين منها وكان من بينهم مروان بن الحكم عاد مع الجيش الذي بعثه يزيد لمحاربتهم وإخضاعهم وبذل كما يستطيع بذله في سبيل نصرة الجيش - رغم ما استوثق أهل المدينة لأنفسهم منه^(١) - حتى تم لهم الفوز.. كتب قائد الحملة « مسلم بن عقبة » إلى يزيد كتابا يطرى فيه مروانا على ما أبداه من المعونة والمناصحة فاستقدمه يزيد إليه وقربه وأدناه وأقام مروان بالشام إلى أن مات يزيد وعقبته وفاة ابنه معاوية دون أن يترك من يصلح لأن يخلفه على كرسي الحكم .

وهنا نرى الأحلام والأمانى جاشت بصدر مروان وعادت الأفكار التي طالما ساورتها بشأن الأمر الذي منى نفسه به تعاوده مرة أخرى ، يدلنا على ذلك كلمة قذف بها من فيه يجس بها نبض الناس فانه بعد دفن معاوية ابن يزيد وقف على قبره وقال

(١) في طبقات بن سعد : أن أهل المدينة لما اجلوا عنها الأمويين أخذوا منه المواثيق والعهود أن لا يرجعوا إليهم وإن قدروا أن يردوا جيش يزيد عنهم فليفعلوا فأعطوهم ذلك راجع صحيفة (٣٨ ج ٥) .

«أندرون من دفتم» قالوا معاوية بن يزيد - وما كان يريد مروان أن يجاب بمثل هذا الجواب - ولكن هكذا أجيب فما وسعه إلا أن قال «هذا أبو لبلى» فقال ازنم الفزارى:

إنى أرى فتنًا تغلى مراجلها والملك بعد أبى لبلى لمن غلبا

فعلم مروان أن هوى الناس لم يكن فيه، ونظر إلى الشام فوجدها تغلى غليان الرجل كما قال ازنم، فقد ذهبت أهواء الناس كل مذهب واحتشدت القوات لمغالبة بعضها بعضاً. فالضحاك^(١) يدعو لابن الزبير وحسان بن مالك يدعو لابن أخته خالد بن معاوية وهذا يتمناها لنفسه وذلك يرجوها لغيره، ولم يكن في القوم من يبغى لمروان أو يبغى مروان لها، واعتم مروان لمجاهبة هذه الحقيقة المرة. وماذا يستطيع أن يصنع فإنه لا يقبل له في مقابلة هذه القوات المحتشدة ولا حيلة لديه أمام هذه الأهواء المختلفة فالدعوة لنفسه بينها - وليس لديه من يؤيده - غرور بنفسه ومجلبة إلى السخرية والاستهزاء به فأسقط في يديه ولم ير أمامه إلا الخضوع لابن الزبير - حب أم كره - وأخذ الأمان له ولبنى أمية منه.

وتأبى الأقدار إلا أن تسوق إليه الملك سوقاً كما قدمنا - رغم قنوطه وبأسه - فإنه لما وصل إلى أذرعات في سفره إلى مكة لقيه بها عبد الله بن زياد وعمرو بن سعيد^(٢) فقال عبد الله لمروان أين تريد؟ فأخبره قال: سبحان الله أرضيت لنفسك بهذا؟ أتبايع لأبى حبيب؟ - يعنى ابن الزبير - وأنت سيد بنى عبد مناف والله لأنت أولى بها - يعنى الخلافة - منه. فهتللت أسارير وجه مروان لهذا الإطراء وبرقت له بارقة الأمل من كلام عبد الله بن زياد فهو ليس بالرجل الذى ياقى القول على عواهنه، ولكنه

(١) هو الضحاك بن قيس القهري وكان زعيماً خطيراً يطبعه كثير من الناس.

(٢) عبد الله بن زياد بن أبيه وعمرو بن سعيد أبى أحيجة بن العاص بن عبد شمس وكنيته أبو أمية وكان مطاعاً في الثمانية.

ممن يعززون الأقوال بالأفعال فاتجه إليه بكلمته وانتزع منه الرأي انتزاعاً ، فقال
عبد الله: الرأي أن ترجع وتدعو إلى نفسك وأنا أكفيك قريشاً ومواليها ولا
يخالفنك منهم أحد؛ فقال عمرو بن سعيد صدق عبيد الله: إنك لجذم قريش وشيخها
وسيدها وما ينظر الناس إلا إلى هذا الغلام خالد بن يزيد فتزوج أمه فيكون في
حجرك وادع إلى نفسك وأنا أكفيك اليمانية فإنهم لا يخالفوني على أن تباع لي من
بعدك ، قال: نعم ، فأبرموا أمرهم على ذلك وتعاقدوا فيما بينهم على بذل الجهود في
تحقيقه ، وذهب ثلاثتهم كل يميني نفسه بالمجد والعظمة وكل له فيها أمل يسعى لنواله
متخذاً من صاحبه ذريعة يتوصل بها إلى ما يريد .

فابن زياد لا يهتم من الأمر إلا أن يرجع إلى إمارة العراق التي طرد عنها ، فنفسه
تسكاد تطير شعاعاً عليها ولا يرجعه إليها إلا عودة الحكم إلى أحد بني أمية ، وليس
في بني أمية من هو أحق من مروان بن الحكم ؛ ومروان يميني نفسه بالملك فليكن
إذاً هو سيد بني عبد مناف ، وليكن هو أولى بالملك من أبي حبيب ، فإذا تم الأمر
على هذه الصورة التي أريدها عدت إلى إمارة العراق وحفظ مروان يدي عنده وكنفت
أحب الناس إليه وأقربهم منه ، بل ربما أشركني في الأمر كما كان أبي زياد شريك
معاوية بن أبي سفيان في أمره من قبل .

أما عمرو بن سعيد فهو سيد مطاع ، وزعيم خطير ، وقائد عظيم ، لا يرضى لنفسه
بما دون الخلافة ، ولكنه ليس هو بالرجل الذي يستجيب له الناس إذا دعاهم لبيعتهم .
وليس أمامه حيال هذه الفتن التي تغلي مراجعها إلا أن يدخل فيما دخل فيه قرينه
الضحاك فيبايع لابن الزبير ، وابن الزبير ليس موقفه موقف الرجل الذي يساوم في
المبايعة بشيء من الأمر لأن أمر الخلافة قد استقام له فالدخول في بيعته لا يزيد في

قدره شيئاً بل ربما اهتزل ابن الزبير من مكانته وانتقص من أطراف زعامته ووضع من كرامته للعداوة التي بين بني أمية وابن الزبير فليس إلا مروان فلا تخذن منه متكئاً أصل به إلى أمنيقي بعهد منه ، ولتكن مساومته على ذلك من الآن فإذا رضى مروان بأن يعهد إلى بالأمر من بعده ، فليكن هو جندم قريش وشيخها وسيدها . أما مروان فهو في أمس الحاجة إلى مثل هذين الرجلين الكبيرين ، وطالما تطلعت نفسه لأن يكون له مثلهما فيأتيان بالجنود يقاتل بها الناس في سبيل الملك ، وها هما والله الحمد قد حضرا وبدلا لي المعونة ، فلأمنيهما بكل ما يشبع نهمهما ، ولأعدهما بالوفاء بكل ما طلبا حتى إذا عقد لي الأمر وتم لي ما أريد فهناك يكون المخرج . وهكذا استغل كل منهم طمع الآخر وسخره لأغراضه وأن لروان أن يتمثل بقول أزنم الفزاري :

اني أرى فتناً تغلي مراجلها والحكم بعد أبي ليلى لمن غلبا

وجاء دور العمل وكان أهم ما يصادف هؤلاء الثلاثة النفر في طريقهم الضحاك ، وهو من علمنا في خطورته وهو مقيم بدمشق قاعدة الشام ، وهو مع ابن الزبير وحسان بن مالك بالأردن وهو مع ابن أخته خالد بن معاوية بن يزيد ، فقال ابن زياد أما الضحاك فأنأ كفيكموه ، وتمهد عمرو بن سعيد بإحضار الجند إذا اقتضى الأمر لمحاربتهم . وذهب مروان إلى الجابية والناس فيها مختلفون كل له هوى يختلف عن هوى الآخر ، واغتنم مروان فرصة اختلاف الأهواء وأسرع إلى أم خالد فتروجها .

وفي هذه الأثناء كان ابن زياد ينصب حياثه في دمشق لإيقاع الضحاك فيها وقد وجد نفسه أمام من هو أعظم منه قوة وأكثر صولة ، حوله العدة والعدد ، فلا سبيل إليه إلا بالحيلة والخديعة ، وكان ابن زياد رجلاً داهية يزور الضحاك في كل يوم دون أن يخوض معه في الأمور السياسية حتى إذا عرف منه أنه أله ، قال له : يا أبا أنيس

العجب لك وأنت شيخ قریش تدعو لابن الزبير وتدع نفسك وأنت أرضى عند الناس منه، فارد لنفسك - وكان الضحاك كان ينتظر من يشجعه على ذلك ولكنه ما كان يتوقع من ابن زياد أن يقول له مثل هذه المقالة أو لعله كان يتقرب أن يستشير ابن زياد في الأمر ففاجأه عميد اللهبه، فاهتبلها فرصة فإن موافقة ابن زياد على إسناد الأمر إليه فرصة لا يمكن إفلاتها . وعلى كل فإن النفس الإنسانية مجبولة على حب ذاتها ومن كان مثل الضحاك في خطورة شأنه ونفوذ كلمته لا يستكثر الملك عليه ولا يرى أنه بعيد عنه فإن تحت يديه الألوف المؤلفة من مطيعيه والنازلين على رأيه، فما هو إلا أن يدعو الناس لبيعته فيسرعون إليها رغبة أو رهبة ومن شاكس أو عاند فليتحكم فيه السيف . هذا ما كان يختلج في صدر أبي أنيس بدليل أنه لما سمع من ابن زياد ما سمع وافق ذلك هوى كان كامناً فيه . ودعا الضحاك الناس إلى نفسه وعجب الناس من هذه الدعوة التي لم يكونوا يتوقعون من الضحاك أن يفاجئهم بها دون أن يمهدها وداخل نفوسهم فيه أشياء ، فبالأمس دعانا لبيعة ابن الزبير فبايعناه وأعطيناه موثيقنا وعهودنا عليها ولم نر من ابن الزبير حدثاً يحملنا على النكوص عنه والنكوث به وماذا يمنعنا من مصارحة الضحاك بذلك وأخبروه باختلاف الناس عليه فخشي مغبة الأمر وعاد للدعوة إلى ابن الزبير ولكن هذا التردد الذي بدا من الضحاك قد عمل عمله في الصدور فأفسد الناس عليه وكثر اللفظ حوله ، واعتبط ابن زياد بهذه النتيجة فليختلق منها سبباً يتوصل به لزعزعة الضحاك من دمشق فذهب إليه وقال له من أراد ما يزيد لم ينزل المدائن والحصون، ومكر به وقال له الرأي أن تخرج من دمشق وتجمع الخيل وتضم إليك الأجناد وتدعو الناس إلى ما تشاء فمن خالف كنت على أهبة القتال فما أرى مثل هذا ينال إلا بالقوة والقهر . فخرج الضحاك ونزل بمرج راهط . وبخت

دمشق لعبيد الله بن زياد فأسرع بالدعوة لروان بن الحكم ، وساعده في نجاحه حب
الدمشقيين لبني أمية وميلهم لهم فبايعوه ، وكتب بذلك إلى مروان وقال له : ادع
من حولك لبيعتك فدعى مروان بنى أمية فبايعوه واتبعهم الناس وامتنع حسان ابن
مالك من البيعة لروان ، وبعد محاولات بايع حسان بن مالك على أن تكون إمرة
حصن لخالد وأن لا يمهّد بالأمر من بعده إلا له فقبل مروان .

أحس الضحاك بما كان من مروان واستبانت له مكيدة ابن زياد وعلم أن ما قيل
له إن هو إلا الأمر مبرم وتدير محكم فألى على نفسه ليتقمّن من ابن زياد وأبي الدخول
فيما دخل فيه القوم وأعلنهم الحرب ، فخرج عبيد الله بأهل دمشق ، وسار مروان
بمن معه ، ووافاهم عمرو بن سعيد بقبيله ، والتقوا عامتهم بالرج حيث ابن قيس بمجموعه
في انتظارهم واقتتلوا عشرين يوماً وكانت النتيجة أن قتل أبو أنيس وأنهزمت جموعه ،
ودخل مروان دمشق فائراً منتصراً لا يزاخه على عرشها مزاحم ، ولم يبق أمامه إلا
أن يعمل على التخلص ممن وعدهم بولاية العهد ليمكّن لأبنائه في الأمر من بعده ،
فكر بعمر بن سعيد ونقض ما اتفقا عليه ، واستخف بشأن خالد وعهد بالأمر لابنيه
عبد الملك ، وعبد العزيز من بعده ، ولكن استخفافه بخالد كان سبباً لخاتمة حياته .
يقال إن خالداً دخل عليه - وكان يجلسه على سريرته بجانيه - فلما أراد الجلوس في
المكان الذي تعود أن يجلس فيه انتهره مروان وقال له : تنح يا ابن رطبة الأست
والله ما وجعت لك عقلاً . فخرج خالد مغضباً ، ودخل على أمه فأخبرها بما قال
مروان فأمرته بكتمانها حتى آنت من مروان غرة وضمت على فته وسادة وغمته بها ،
وأمرت جواريتها أن يجلسن عليه حتى مات وانثقت بنت مالك لنفسها ولابنها منه .
وكانت نهاية حياته على يديها بهذه الصورة ولكن بعد أن ضمن لأبنائه الحكم من
بعده ومكّن لهم فيه وكانت وفاته سنة ٦٥ هجرية .

« محمد بن علي بن أبي طالب »

المشهور بابن الحنفية

بينما نرى مما تقدم ما تنطوى عليه نفسية مروان بن الحكم من الطمع والحرص اللذين يدفعانه إلى السعى بكل وسيلة ممكنة لنوال الملك وبذل كل ما يستطيع بذله في سبيل جلوسه على كرسى الحكم نرى محمد بن الحنفية يطالعنا بنفسية أسمى وأكمل فلقد كانت نفسيته تختلف تمام الاختلاف عن نفسية مروان ونرى في آن واحد وفي ظرف واحد كلا الرجلين المتعاصرين له رأى في الحياة يختلف عن رأى الآخر فيها اختلافاً بيناً ولكل منهما طريق لا تتفق وطريق الثاني مع أن كلا منهما تكاد تكون ظروفه متشابهة فيما يحيط بهما من المؤثرات إذ رأى الناس في ترشيحهما للخلافة مماثل على أن لابن الحنفية ميزة لم تكن لمروان مثلها ولا ما يقاربها فلابن الحنفية سلطة روحية على الناس تدفعهم على تقديمه على مروان وله شيعة تجله وتقدسه ، وكان لهذه الشيعة قوة لا يستهان بها فلو خاض ابن الحنفية بشيئته غمار الفتن التي كانت تغلي مراجلها في العالم الإسلامي حينذاك واغتم فرصة اختلاف الأهواء على من يلي الحكم بعد أبي ليل لغلب وظفر بالسلطان ولتسبم ذروة لم يكن مروان ليتسبمها لولا تنجيئه عنها .

وهذا التنجي من محمد بن علي وزهده في الملك لم ينتقصا من مكانه شيئاً بل جعل لشخصيته من الهيبة والاحترام ما تتضاءل أمامها عظمة مروان بالرغم مما يحفظها من أهبة الحكم ومظاهر الاستعلاء على الناس فلقد كانت الوفود تترى جموعها من الأنحاء على باب محمد ترجوه - برغبة ملححة - أن يقبل ببيعتهم ويؤمه الناس من كل مكان يدعونه

لأن يتولى أمرهم . ودافعهم في ذلك عقيدة امتلكت عليهم جميع مشاعرهم، فهم يرون في طاعته قرابة يتقربون بها إلى بارئهم وفي ارتقائه كرمى الخلافة حقاً أعيد إلى نصابه وليس في نظرهم من هو أولى بالخلافة منه .

ويرى ابن الحنفية هذه الرغبة من شيعته فيه وهذا الاندفاع منهم إليه يحفون به ويودون أن لو يشير إليهم بمحاربة من أراد من سكان الأرض فيميدلون أرواحهم رخيصة لتحقيق رغائبه . يرى كل ذلك من أشياعه ومحبيه مع ما هو فيه من اضطهاد مروان له إذا هو حل بالشام وتعذيب ابن الزبير له ولأسرته إذا هو نزل بالحجاز . فيمثل لتصاريف القضاء ويصبر على محن الدهر ويرفض ما يمرضه عليه أتباعه من الوثوب والدفاع، ويختار ما هو فيه من البلاء حباً في توحيد الكلمة واجتماع الأمة ورغبة منه في حقن الدماء وميلاً للموادعة والمسائلة واستنكافاً للشقاق والمشاحنة بين أبناء الأمة الواحدة وعزوفاً بنفسه عن احتمال تبعات الدماء التي يراد سفكها في سبيل الأغراض الدانية والمصالح الشخصية والنمرات العصبية التي عمل على محاربتها وإبادة آثارها من النفوس أوثق الناس قرابة به « محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم » والتي لولا انتسابه إليه ما عظمه الناس . وماذا يضر ابن الحنفية أو ماذا ينتقص من كرامته أو ماذا يخل بمكانته إذا أجمعت الأمة على بيعة شخص غيره كائناً من كان ؟ ودخل هو فيما يدخل فيه المسلمون كفرد من عامتهم ؟ إن ذلك خير له من أن يسفك محجناً من دم في سبيل أهوائه ومطامعه وما هي إذاً تلك الميزة التي تميزه عن غيره إن لم يكن كمال الإنسانية أوفر فيه من سواه ؟

وما هو الفارق بينه وهو سليل عظيم ابن هاشم بعد محمد ! وهو المسمى بالمهدى وبين مروان الذي يقال له الوزغ بن الوزغ إذا هو عمل عمله ؟ وخاض بأتباعه غمار

عجاجات لولا الأَطْعَام ما ثارت بين أناس يدينون بدين واحد ويتوجهون إلى قبلة واحدة في كل يوم خمس مرات .

إن محمد بن الحنفية يجب أن يسمو بنفسه ويملو على الناس بروحه وعقله لا بسيفه وجنده كما يفعل مروان وابن الزبير . ولكن صحيفته أتق من صحيفتهما حتى إذا نشرت لتتلى وجدت بيضاء نقية لم تتلوث أطرافها بقطرة من دم على كثرة ما سفك حولها من الدماء في ذلك العصر . واستطاع ابن الحنفية أن يحتفظ بتلك الصحيفة الناصعة التي اختارها لنفسه فكانت كما أراد . وبز بجلال عقله وسمو نفسه ومثانة خلقه من عداه من البارزين في زمانه . وهل من سمو يضاها سمو أبي القاسم - كنية ابن الحنفية - وهل من ترفع عن خدع الحياة أبلغ من هذا الترفع ؟ . واستمع لمحمد وهو يخاطب الجموع المطيعة له المدعنة لشبيئته ليفضها من حوله .

« نحن بحيث ترون محتسبون ، وما أحب أن لي سلطان الدنيا بقتل مؤمن بغير حق ولوددت أن الله انتصر لنا بمن شاء من خلقه فاحذروا الكذابين وانظروا لأنفسكم ودينكم » .

ويقول وردان: كنت في العصابة الذين انتدبوا لمحمد بن علي ، وكان ابن الزبير منعه أن يدخل مكة حتى يبايعه فأبى أن يبايعه قال فاتمينا إليه فأراد أهل الشام شتمه عبد الملك أن يدخلها حتى يبايعه فأبى عليه ، قال فسرنا معه ما سرنا ولو أمرنا بقتال لقاتلنا معه فجمعنا يوماً فقسم فينا شيئاً وهو يسير . ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ألحقوا برجالكم واتقوا الله وعليكم بما تعرفون ودعوا ما تنكرون ، وعليكم بخاصة أنفسكم ودعوا أمر العامة واستقروا على أمرنا كما استقرت السماء والأرض ، فإن أمرنا

إذا جاء كان كالشمس الضاحية » فانصرف الناس . نزولاً على رغبته وبقي معه تسعةائة نفر .

أرأيت كيف لم يذهب بحمله ووقاره الطيش ولا النزغ ولم تغره كثرة الإتياع للانتقام من مضطهديه . وآثر أن يكون فرداً من عامة المسلمين على أن يكون له ملك الأرض .

ولما تم تغلب عبد الملك بن مروان على منافسيه في الأمر وقضى على دولة ابن الزبير وأجمعت الأمة على بيعته بايعه بدون تردد ولم يسفك قطرة دم يسأل بتبعتها أمام ربه حتى وافاه الأجل المحتوم رحمه الله .

« عبد الملك بن مروان »

يصح أن نقول ان عبد الملك بن مروان آخر ملك حجازي أسند إليه أمر الخلافة الإسلامية فحمل الناس على السيف حتى جعلهم يجمعون عليه ويلقون مقاليد أمورهم بين يديه .

عهد إليه أبوه مروان بن الحكم بالأمر من بعده . وكان عبد الملك « شاباً أديباً ذكياً فضلاً له إلمام واسع بعلوم الشريعة والحديث والفقه واللغة . قال الشعبي : ماذا كرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذا كرته حديثاً إلا زادني فيه ولا شعراً إلا زادني فيه^(١) » وكان معدوداً من أهل الفطنة والحجامة تقوى وورع يشهد له بهما الناس حتى كانوا يلقبونه « بجمامة المسجد » لكثرة ملازمته له . وكان أقرأ الناس للقرآن .

(١) كتاب الدولة الأموية لتركيب الصولي (ص ٢١١)

ولسكننا لا نلبث أن نرى تحولاً كبيراً طرأ عليه في أخلاقه وعاداته بعد اعتلائه العرش . مما يجعلنا نؤمن بأن كراسى الحكم ومقاييد السلطة ذات أثر فعال في قلب الأخلاق والعادات وتكوينها وتكويناً يتلاءم مع الأعمال الواجبة على طالب الحكم لتزكية نفسه على القوة التي يختارها كي يستمد نفوذه منها في نشر سلطانه ودوام ملكه وتختلف القوى بحسب اختلاف البيئات ومقتضيات الظروف .

وأول انقلاب يطالعنا به عبد الملك في أخلاقه وطباعه - حينما آل إليه الأمر - وضعُ المصحف من يديه وقوله « هذا فراق بيني وبينك » ثم خطبته الرهيبة التي افتتح بها عهده « أيها الناس إنني لست بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ولا بالخليفة المأفون، ولكن من قال برأسه كذا قلت بسيفي كذا » .

أى رجل هذا الذى ينفث من فيه الموت الزؤام ؟ ومن هذا الذى تحمل نبرات صوته الإرهاب والوعيد فتوصلها إلى الأذان وتنفذ منها إلى القلوب فتصطك لها الأسنان ؟ أهذا هو عبد الملك الذى نعمه ونعرفه أهذا هو الرجل الوديع الملقب بحمامة المسجد ؟

... لم يعد الآن حمامة المسجد ولكنه أسد الغوطة ، وجبار دمشق فالويل لمن قال برأسه « كذا » محدثاً نفسه بمعارضته بعد اليوم .

ولى عبد الملك الأمر والمتطعون إليه كثر والمنافسون له من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .

١ - فعمد الله بن الزبير يدعى الخلافة بالحجاز ولا يرى أحداً أحق بها منه . لذلك فهو يسعى مجدداً للاستيلاء على الشام .

- ٢ - وأخوه مصعب بن الزبير عامله على البصرة مجد في استتصاف العراق لأخيه .
- ٣ - والمختار الثقفي بالكوفة يتطلع لاقتناص الأمر بكل وسيلة .
- ٤ - والخوارج بفارس يقاتلون بحملاتهم المتوالية نفوس الخلفاء أياً كانوا .
- ٥ - وعمرو بن سعيد وخالد بن معاوية بن يزيد بدمشق يقضون مضجعه .
- ٦ - والهاشميون وأشياعهم منبشون هنا وهناك متبرمين بالحكم الأموي ساخطين عليه .
- ٧ - وعبد العزيز بن مروان يترقب وفاة أخيه عبد الملك ليثب إلى العرش تنفيذاً لوصية أبيه .

ولم يخف على عبد الملك كل ذلك مما يحيط به . وهو يريد رغم كل هذا استتصاف الملك لنفسه وتوريثه لأبنائه من بعده . فكيف يصنع ؟

وما كان عبد الملك في ذلك الوقت شيخاً ولا كهلاً حتى يعيل إلى المراوغة والمداهنة في أموره . ولكنه كان شاباً قوياً تدفعه فورة الدم الفتى الذى يجرى في شرايينه إلى الشدة والبطش والسرعة ، والعجلة إلى تحكيم السيف بينه وبين خصومه فإما الفوز العاجل أو الموت المستعجل . ولا نقول إن عبد الملك لم ينجح إلى التفكير العميق في أعماله بل ربما فكر وأطال التفكير . فلا يبعد أنه رأى أن الضعف والتردد اوديا بحياة المتذرعين بهما من ذوى المطامع والمطامح أمثاله . ثم ماذا تريد أن ينتهى إليه تفكير شاب مثل عبد الملك المعتمد بنفسه غير البطش واصلات السيف على الرقاب بدون هودة . كما لا يبعد أيضاً أن نفسه - المتمطشة للعظمة والاعتلاء على الناس - أكدت له أن هذه الخطة - خطة البطش والشدة - أنجع الخطط لمعالجة شؤونه ليصفوا له الملك ويخلص منه إلى أبنائه .

وقد تكون خطته أقرب إلى الصواب في أفكار أبناء ذلك الزمان من غيرها .

فإن الحوادث المفاجئة في ميدان السياسة كانت فيه أشبه ما تكون بالأعاصير العاتية لا تلبث أن تصف بطلاب الحكم وعشاق الخلافة وتفتك بهم فتسكا ذريعا فلا يكاد يثبت في مهاهما ويتجنب نكباتها إلا كل من كان قويا جباراً . فليعمد إذاً إلى القوة وليخضع لمقتضياتها مهما كلفه ذلك وليتعجل تنفيذ أوامرها وليسحق كل من يقف حجر عثرة في سبيله كائنا من كان .

لذلك جاءت خطبته إيدانا للناس بالسياسة التي انتوى السير بموجبها وتلاعبت بأبالسة الجبروت في مخيلته ثم تمت له في أشخاص الحجاج الثقفي وأضرابه من ذوى الصرامة والقسوة فأنس إليهم واستعان بهم فكانوا من خير أعوانه ومن أخلص المخلصين له فلم يتوانوا في تنفيذ أوامره الرهيبة وسفك دماء الناس لأوهى الأسباب ابتغاء مرضاته .

قضت سياسة عبد الملك عليه أن لا ينظر إلى الأمور إلا بمنظار واحد هو منظار الاستئثار بالملك له وله وحده فقط . فقدر حسب مقتضياتها الصارمة القاسية .

- ١ - الفتك بأخيه عبد العزيز . فساعده الأقدار وامتدت إلى أخيه فقضت عليه وأراحته منه دون أن تلوث يده بدم أخيه فحمد عبد الملك للقدر صنيعه .
- ٢ - وقرر ذبح ابن عمه عمرو بن سعيد وذبحه كما تذبح النعجة .
- ٣ - محاربة صديقه ورفيق صباه مصعب بن الزبير وقتله وقد تم له ذلك .
- ٤ - القضاء على حكومة عبد الله بن الزبير ومحوها ، فجهز إليها جيشاً بقيادة الحجاج الثقفي فقتله هذا وصلبه وقضى على دولته .
- ٥ - قذف الخوارج بقواد بعثروهم كل مبعثر .

٦ - لم يبق أمامه إلا تهديئة العراق واستئصال شأفة الشعب من ربوعه فرمى سكان الرافدين بأصوب سهم في كنانته « الحجاج » فنفذ أمره فيها .

٧ - أما زعيم الهاشميين في ذلك الوقت - محمد بن الحنفية - الذي مرت بك ترجمته فقد دفعه ميله إلى السلم وإيثاره العافية على غيرها إلى بيعته والإنضواء تحت رايته .

فلما تم له كل ذلك وأمن جأحة أعدائه وأذعن له من بقى من أقربائه بعث البعوث وجند الأجناد للفتح والغزو لنشر الإسلام في بلاد الهند وأقصى الشرق حتى بلغت الدولة الأموية أوج مجدها على يديه وبعد أن اتسعت دائرة ملكه وانتشر فيها سلطانه أخذ يعمل للتودد من قلوب رعيته فقلع رداء التنمر وحط عنه لباس البطش لترى فيه برعيته الملك العادل اليقظ على إدارته المتنبه لشؤون أمته الساهر على حفظ أمانته .

فأمر ولاته بالرفق والتريث في الأحكام ، والاهتمام بالمشاورة وطب النصيحة ، وقطع دابر الرشوة ، فعزل الموظفين الخائنين الذين لا يعرفون من الوظيفة إلا ملء جيوبهم وتأخير مصالح الناس وعدم قضائها في أوقاتها ، فكان بذلك شديد اليقظة كثير التمهيد لولاته ، شديداً في أحكامه عليهم ، روى الجاحظ : « بلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية فأمر بإشخاصه إليه فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال : يا أمير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضل حال ، قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ، قال : نعم ، قال : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك للثيم ، ولئن أنلت مهديك لا من مالك أو استكفيته مالم يستكفاه إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوض المهدي إليك من مالك وقبيل ما أتهمك به عند من استكفأك وبسط لسان عائبك وأطمع فيك أهل عمك

إنك لجاهل وما فيمن أتى أمرآلم يخل فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع نحيناہ
عن عمله (١) .

وقد أسدى إلى العروبة يداً تمجدها له العروبة مادام أبناؤها على وجه الأرض
وهى أمره بتحويل الدواوين الحكومية وتدوينها باللغة العربية بعد أن كانت تكتب
بالرومية والفارسية ، وسكه النقود وطبعها بالطابع العربي الإسلامى بعد أن كان
المسلمون يتعاملون بعملة تحمل طابع الروم . وكان سبب ذلك أنه كتب فى صدور
الكتب إلى الروم قل هو الله أحد ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع التاريخ .
فكتب إليه ملك الروم إنكم قد أحدثتم كذا وكذا فتركوه وإلا أناكم فى دنائيرنا
من ذكر نبىكم ماتسكروهون معظم ذلك عليه ، فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية
فاستشاره فيه فقال حرم دنائيرهم وأضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى فضرب
الدناير والدرهم وذلك فى سنة ٧٦ هـ (٢) .

وإنها لخدمة من أجل الخدمات التاريخية يذكر المسلمون بها عبد الملك بالإعجاب
والإكبار وله بعد ذلك ميزات قل أن توجد فى غيره من الملوك نحيل القارىء فى
مراجعتها إلى كتب التاريخ وأسفار الأدب .

ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ بالمدينة المنورة وتوفى سنة ٨٦ هـ وكانت مدة خلافته
١٣ سنة وخمسة أشهر رحمه الله .

(١) نقلا من كتاب الدولة الأموية فى الشام لصاحبه أنين زكريا الصولى ص ٢٠٩

(٢) ابن الأثير ص ٢٠٢ ج ٤

« الحجاج بن يوسف الثقفي »

هذا الرجل الجبار الذي احتل جزءاً كبيراً من تاريخ بني أمية ، والذي صار مضرب الأمثال في القسوة والشدة . كان بغير شك رجلاً محظوظاً في حياته وما زال حسن الحظ ملازماً له حتى بعد وفاته ، وسيلازمه حسن الحظ ما دام اسمه مسطوراً في التاريخ لتردده ألسنة الناس جيلاً بعد جيل .

فحسن الحظ هو الذي جعل من الحجاج « معلم الصبيان » رجلاً عظيماً وهو الذي جعل له بجانب سمته السيئة آثاراً جميلة خالدة لا يمكن للتاريخ أن يغمطه حقها فيها . فحسن الحظ هو الذي دفع الحجاج لمغادرة قريته وأغراه بأن يترك مهنته ويضرب في الأرض ؛ ولولا ذلك لطوته قريته كما طوت غيره من أبنائها ، ولما عرف الحجاج أحد من الناس .

وحسن الحظ هو الذي جعله ينتظم في سلك شرطة عبد الملك بن مروان حتى يصبح رئيساً لها ، ولولا ذلك ما عرفه عبد الملك ولما نبه ذكره .

وحسن الحظ هو الذي أنجاه من صواعق تهامة ليعتم انصار حكومة ابن الزبير على يديه^(١) ولولا ذلك ما أشركه « أسد الغوطة » في توطيد ملكه .

وحسن الحظ هو الذي جعله يهزم ابن الأشعث ويمزق جيشه الكثيف الذي كاد

(١) يقال إن الحجاج لما نصب المنجنيق بجبل أبي قبيس وأمر جنده برمي السكبة لاعتصام ابن الزبير بها أرسلت السماء صواعقها واجتاحت كل من دنا من المنجنيق فتهدت جند الشام وامتنعوا عن الرمي فجاء الحجاج وأخذ يرمي الحجارة من المنجنيق على السكبة ويقول أنا ابن تهامة وأعلم بصواعقها فلما لم يمسه سوء أقدم الشام على الرمي حتى تم لهم الاستيلاء على مكة وقتل ابن الزبير .

يكسح سلطة الأمويين من العراق ويبتز من جسم الدولة الأموية عضواً من أهم أعضائها .

وحسن الحظ هو الذي جعل الإمام مالك الكافيتي الرشيد بعدم هدم الكعبة كما كان يفتوى لإعادتها على ما كانت عليه زمن الخليل إبراهيم ليقى للحجاج أثراً محسوساً في أقدس مقدسات المسلمين .

وحسن الحظ هو الذي جعله يأمر بتشكيل القرآن ، فتعزى إليه هذه الحسنة التي لم يسبقه أحد إليها .

وحسن الحظ هو الذي جعل الخليفة الصالح « عمر بن عبد العزيز » ينفس على الحجاج فعل الصالحات فينبه الناس إلى مواضع الخير الكامنة في نفس الحجاج (١) .

وما دام حسن الحظ يلازم هذا الرجل في حياته فينجح في كل عمل يباشره ، وبعد مماته فينفس عليه الصالحون فعل الصالحات ، فأغفاله من بين رجالات الحجاز يُعد عقوقاً به وبالحجاز والحجازيين معاً ، فإذا ما ذكر عطاء الحجاز كان الحجاج من بينهم كالعالم الذي لا يمكن أن تخفى رؤيته على أحد .

ولد الحجاج بقرية كوثر من ضواحي الطائف سنة ٤١ هـ ونشأ في قرية نشأة

(١) قال عمر بن عبد العزيز - وكان يبغض الحجاج - ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدى إياه على حبه للقرآن وإعطائه أهله . وقوله حين الوفاة : اللهم اغفر لي فإن الناس يظنون انك لا تفعل . وقال حين حضرته الوفاة :

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا
أيحلفون على عمياء ويحهم
بأننى رجل من ساكنى النار
ما عليهم بكثير العفو غفار

بدوية جافة وحجازية منقشفة ، فقرأ القرآن وجوده ثم افتتح « كِتَابًا » يُعَلِّمُ فِيهِ
أطفال القرية القرآن .

ولكن هذه الحياة الهادئة بين أكواخ تلك القرية المتواضعة لا تتفق ونفسية
الحجاج المتمردة الجبارة ، وكأنه كان يحس في قرارة نفسه أنه خلق لعمل غير العمل
الذي هو فيه ، فهجر قريته لتأ كده أنها لا تصلح لأن تكون ميداناً لتحقيق أمانيه
الجياشة التي كان يفور بها صدره . والحق أن تلك القرية الصغيرة النائية عن ميادين
النضال والمنافسة لا تقوى على احتمالها في قوته وطموحه وإن قويت فهي لا تستطيع
أن توصله إلى ما وصل إليه من الشهرة وبُعد الصيت التي نالها فيما بعد وكل ما تستطيع
أن توصله قريته إليه هو أن تجعله شيخاً من مشائخ الأعراب في هضبة من هضبات
الحجاز دون أن يحس به أحد . ولم تبين الكتب والمراجع التي وصلت إلى يدي أن
أحد دعاه إلى هجر تلك الحياة الوادعة وزين له حياة غيرها كما أنها لم تثبت هل هو
سافر إلى الشام رأساً أو ذهب إلى غيرها من البلاد ، ثم قذفته المقادير على دمشق قبلة
الأنظار ووجهة ذوى الطموح في ذلك الوقت ، ولكن الذي بينته أنه ولّى ولاية في
نواحي نجران على قرية يقال لها تباله قبل التحاقه بشرطة عبد الملك ، ولكنه لم
يباشر عمله فيها احتقاراً لها فإنه لما أشرف عليها سأل عنها فقيل له خلف هذه الأكمة ،
فغادرها قبل أن يصل إليها كبرياء منه وأنفة أن يكون أميراً على بلدة حقيرة تسترها
عن عينيه أكمة صغيرة - كما قال -

وهنا يغلب على الظن أنه جاء من قريته إلى مكة فتكون ولايته على تباله من قبل
ابن الزبير لأن تلك النواحي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرته .

ويبدو لي أن الحجاج كان - حين استصغاره الأمانة على تلك القرية - يحس في قرارة نفسه بأنه رجل محدود وان الحظ سيموضه إمرة أعظم شأنًا وأجل خطراً منها فلذلك رفض أن يكون أميراً على تلك القرية الصغيرة ، والمعروف أن من كان معلماً للصبيان لا يسوغ له أن يرفض إمرة ساقها الأقدار إليه ويمود خلو الوفاض منها .

عاد الحجاج من حيث أتى غير آسف على ما فرط باستهانته لتلك الإمارة، ولكننا لا نلبث أن نرى الحجاج يجوس شوارع دمشق بملابس الشرطة ولا يمضي عليه كبير وقت حتى زاه مديراً للأمن العام في عاصمة الأمويين فيقوم بأعمال تلفت نظر عبد الملك إليه فيقربه ويدنيه ، وترداد بمرور الأيام ثقة عبد الملك به فيؤمره على حملة عظيمة ويكل إليه أمر القضاء على منافسه في الخلافة - عبد الله بن الزبير - فيظهر الحجاج من البراعة في قيادة تلك الحملة ما يجعله يوردها موارد الظفر ، فيوليه الخليفة أميراً على الحجاز ثم ينقله إلى العراق بنفس تلك الوظيفة ؛ وفي العراق يظهر الحجاج بالمظهر الذي أحب لنفسه أن تظهر به ، فتبدو عليه سماء العظمة والإرهاب ويبلغ الحجاج أوج مجده .

أرأيت كيف عمل حسن الحظ عمله في تكوين الحجاج حتى جعله عظيماً ومن أفذاذ العظماء ، ولكن لا يفرب عن بالنا أن الحجاج كان لديه من حسن الاستعداد ما يجعله يعرف كيف يستغل حسن حظه ويسخره لطاممه ومطامحه فقد كان لا يدع فرصة سانحة تمر به دون أن يهتبلها لصالحه ، ثم إنه كان له من وفرة عقله ومتانة خلقه ما يهيئه لتبوؤ منازل العظماء ، يقول أبو العلاء « رأيت عقول الناس يقرب

بعضها من بعض إلا الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس» ويقول ابن عساكر «تغذى الحجاج يوماً مع الوليد فلما انقض غداؤها دعاه الوليد إلى شرب النبيذ، فقال: يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت ولكني أنهى عنه أهل عملي وأكره أن أخالف قول العبد الصالح» وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»^(١) ثم هو أفصح الناس لساناً ومن أقوام جناناً، وكان من الخطباء المبرزين في زمانه، قال عبد الملك بن مروان لخالد بن سلمة المخزومي من أخطب الناس قال أنا قال ثم من، قال سيد جذام - يعني روح بن زنباع - قال ثم من، قال أخيفش ثقيف - يعني الحجاج - قال ثم من، قال أمير المؤمنين قال ويحك جعلتني رابع أربعة قال نعم هو ما سمعت^(٢).

وقد حبيبه إلى قلوب الخلفاء من بني أمية إخلاصه لهم وتفانيه في خدمتهم وتوطيد ملكهم مع زهده في أموالهم.

مات الحجاج عام ٩٥ هـ « ولم يترك إلا ثلثمائة درهم ومضجماً وسيقاً وسرجاً ومائة درع موقوفة»^(٣) ولعل ذلك راجع إلى نشأته الحجازية المتقشفة كما يرجح أن إقدامه على سفك الدماء وإسرافه فيها راجع إلى نشأته البدوية الجافة.

وقبل أن أختتم الحديث عن الحجاج أورد خطبة من خطبه الموجزة كمنهوج لما كان عليه من الفصاحة في قوله والصرامة في فعله:

« شأهت الوجوه ، « ضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا

(١) الدولة الأموية في الشام للأستاذ أمين زكريا الصولي ١٥٩ (٢) و(٣) المرجع نفسه.

يصنعون) وأنتم أولئك وأشبه أولئك فاستوثقوا واستقيموا فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تذروا العصيان ولأعصبنكم عصب السامة حتى تنقادوا وأقسم بالله لتقبلن على الإنصاف ولتدعن الأرجاف وكان وكان وأخبرني فلان عن فلان والهبر وما الهبر أو لأهبرنكم بالسيف حتى يدع النساء أيى والولدان يتامى وحتى تذروا السهمى وتقلعوا عن ها وها . إياى وهذه الزرافات : لا يركبن الرجل منكم إلا وحده ، ألا أنه لوساغ لأهل المعصية معصيتهم ماجبى فيى ، ولا قوتل عدو ، ولعلت الثغور ، ولولا أنهم يغزون كرها ماغزوا طوعاً .

وكان سنه حين وفاته ٥٤ سنة وله من المنشآت مدينة واسط بالعراق .

الحارث بن كلدة

طبيب . . وموسيقار

قلنا إن الحجازيين ما زالوا أياً كان من الأعمال إلا كانوا فيه من المبرزين ، وما لجوا طريقاً إلا كانت خطاهم فيها مسددة ، وما وجهوا عنايتهم لأمر من الأمور إلا كانوا أئمة بقتدى بهم ؛ وقد قرأت مما تقدم من سير رجالنا صفحة موجزة دللتك على مبلغ تفوقهم فى مختلف الشؤون التى قابلتهم بها ظروف حياتهم فما قصروا بل كانوا فى تحمل أعبائها من الأ كفاء الممتازين .

وكان قيامهم بتمثيل الأدوار التى عهد إليهم التاريخ بتمثيلها على مسرح الحياة مشيراً للدهشة والإعجاب إذ أدى كل فرد منهم دوره على أكمل وجه وأتمه .

وأحاول الآن أن أطالعك على شخصية جديدة من شخصياتنا الأفاضل فىنا لتعلم

أن ذكاء الحجازيين لم يقف عند حد ، بل ترك لنا الآباء في كل ميدان من ميادين الحياة
المجدية أثراً خالداً ، وفخراً نشيد بذكره . تلك هي شخصية طبيب العرب المشهور
« الحارث بن كعدة » .

يقول الأستاذ زكريا الصولي في حديثه عن الحارث بن كعدة أنه « شاب حجازي
ولد في الطائف ورحل في طلب صناعة الطب إلى اليمن وفارس فأخذ عن أشهر أطباء
جند يسابور ، وأصاب في بلاد العجم مالا كثيراً لمداواته عطاءها وكبراءها » .

إذاً ، فهذا الشاب الحجازي ابن الأباطح والخيوف ، ابن البلاد الصحراوية والجمال
المجدبة والمغاوير الموحشة ، وسليل الأمة الأمية ، بز بذكائه وعبقريته أبناء فارس ،
أبناء العلم والمعرفة وذوى المدينة والحضارة ، وسليل الملوك والعظماء من أهل الصول
والطول . وأقر له بالنبوغ في الطب كبراء فارس وعظماؤها ، فحبوه بالأموال العظيمة
تقديراً لنبوغه واعترافاً بتفوقه وإقراراً منهم بفضله ، فيما أسداه من الخدمات الصحية
الموفقة لمحاربة الأمراض في بلادهم ، وإن كان ليس في هذا ما يدعو للفخر ، فإن من
دواعي الفخر أن يفوز الحارث على منافسيه من أبناء مهنته - أطباء الفرس - في عقر
دارهم ، وأن يكون له من المؤهلات ما يدع وجهاء الفرس يتهافتون على طبيب حجازي
- عربياً عنهم - يعالجهم ويدعون أبناء جنسهم من الأطباء الذين ترخر بهم بلاد فارس
وهكذا يتفوق الذكاء الحجازي في شخص الحارث على الذكاء الفارسي وهو في أوج
مجده أفلا يسوغ لنا أن نفتخر به ، وإن كنا نشكر لأبناء فارس تقديرهم للعبقرية
واعترافهم بفضل صاحبها أتى كان دون أن يتذرعوا بالتعصب الأعمى انتصاراً لأنفسهم
على الغير ، وإنما نرى الآن من يتعصب لنفسه ويغصم حقوق غيره حسداً وهم
بذلك إنما يسيئون لأنفسهم ويسيتون إلى المجتمع الذي يحيون فيه فيحرمونه من

كفاءات ومواهب تنفع ولا تضر ، فهل لأمثال هؤلاء أن تميل نفوسهم إلى الساحة التي اشتهرت بها نفوس أبناء فارس منذ أجيال ، لتحسن ذكراهم وتطيب سيرتهم أحياءً وأمواتاً ؟

ولم يقف الحارث قائماً بما وُفق إليه من النجاح الذي صادفه في حياته العملية في أرض فارس ، بل راحت نفسه الطموحة تدفعه إلى الاستزادة من العلم في مهنته ؛ يقول الصولي : « وتمرن في طبابة العيون حتى طار صيته فيها . وكان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، وأدرك أيام معاوية رضى الله عنه ، ثم هزه الحنين فاشتاقت نفسه إلى موطنه فرجع إلى الحجاز فدرس أمراض العرب وعرف ماتعتاده القبائل من المعالجات » ماذا أقول ؟ أأكون مبالغاً إذا قلت ان طبيبتنا الحجازي الأول « الحارث بن كلدة » غمطه التاريخ فلم يوفه حقه من الاعتناء فما أشاد بذكره كما أشاد وأفاض في ذكر النابغين من أطباء الأمم الأخرى ؟ ألم تكن دراسات الحارث لأمراض العرب ومعرفة ما تعتاده القبائل من المعالجات كدراسات غيره من أساطين الطب في هذا العصر وكل عصر ؟ ، ألم تكن دراساته هذه مشاركة فعلية شارك بها زملاءه من أطباء الإغريق والفرس والهنود والمصريين في وضع أسس الطب وخدمة الإنسانية العذبة ؟ وإنه لعمر الحق بعمله هذا يعد من السابقين الذين يعود إليهم الفضل في تسهيل مهمة الأطباء اليوم بما وصل إلى علماء الطب من المعلومات عن طريقه .

وكما خدم الحارث الطب بعمله كذلك خدم الموسيقى بذوقه وفنه إن لم نقل إنه هو أول من اخترع الموسيقى العربية وأول حجازي ضرب على العود ؛ يقول الصولي : « وكان الحارث موسيقياً ماهراً فضرب على العود ولعله اقتبس ذلك من فارس . »

يظهر من هذا أن الموسيقى لم تعرف عند عرب الحجاز ، فلما ذهب الحارث إلى بلاد فارس اقتبس من غناء الفرس ، واجتهد في أن يضع أنغاماً عربية توافق أمزجة الحجازيين والعرب ، ولا يبعد أنه اهتدى - وهو الطبيب الماهر - إلى أن للأنغام تأثيراً عظيماً في معالجة بعض الأمراض فاستعان بالموسيقى على أداء مهمته الصحية .

لقد كان الحارث من عباقرة الأطباء - بشهادة الفرس - وكان له دماغ الفيلسوف الذي لا يعسر عليه أن يكتشف المجهول ويخترع المعلوم ، لذلك نراه يميل إلى الموسيقى لعلمه بما لها من التأثير في النفوس فيستعين بها في أداء مهمته ، فإن لم يكن هو أول من اهتدى إلى معالجة المرض عن طريق الموسيقى ، فلا أقل من أن يكون من السابقين إلى ذلك .

وللحارث كلمات طيبة مأثورة يتناقلها الناس ، منها : « الداء الدوى إدخال الطعام على الطعام ، لا تدخل الحمام شعباناً ، ولا تم بالليل عريانا ، ولا تقعد على الطعام غضباناً ، وارفق بنفسك يكن أرضى لبالك ، واقل من طعامك يكن أهناً لنومك ، من سره البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء ، وليعجل العشاء ، وليخفف الزداء ، وليقلل من الجماع » هذه الكلمات الخالدات تدلك على مبلغ تعمق الحارث وتبحره في صناعته ، ومبلغ معرفته مدى المؤثرات في جسم الإنسان . ألسنت تلوح في قوله : ولا تقعد على الطعام غضباناً ، وارفق بنفسك يكن أرضى لبالك ، تقريراً موجزاً على الملائنفعالات النفسية من التأثير البالغ في الجسم وما تحدثه فيه العواطف المختلفة من آثار لها مفعولها ألم يكن لأقل من هذه الأعمال ما يوجب التقدير ؟ .

لو لم يكن من تقاليدنا الإسلامية تحريم إقامة التماثيل لاتخذنا لك يا ابن كدّة تمثالاً

من الذهب الوهاج ، ولا قنناه في أهم مياديننا العامة إحياء لذكراك واعترافاً بجميلك .
فلا غرو أنك من الأفضال الذين وقفوا نبوغهم وعبقريتهم لخدمة الإنسانية ورفاهيتها
والسعى لكل ما يخفف آلامها وأسديت للبشرية أيادي بيضاء وخدمات جليلة بما اهتدى
إليه عقلك الجبار وبما وفقت إليه من الأعمال المشكورة التي تستحق بها التخليد
والإكبار فإنك في نظري لا تقبل في عقليتك عن عقلية أعظم الفلاسفة الذين
يعجدهم الناس في كل وقت وأن يرجعون إليهم الفضل في وضع القواعد الأولية
للطب والموسيقى .

ولكن في سبيل الله ما لاقيت من عقوق وغمط وفي ذمة التاريخ ما منيت به
من إهمال وحرمان .

وعسى أن أوفق فأفيض مرة أخرى في البحث عنك وعن آثارك أداءً للواجب
نحوك أيها الطبيب الكبير والموسيقار الماهر .

« عبد الله بن عامر ^(١) - وعبد العزيز بن مروان »

كانت الدولة الفارسية الدولة الوحيدة تحت سماء الشرق في القوة والمظمة وبعد
الصيت كما كانت الدولة الوحيدة تحت سماء الغرب دولة الرومانيين . وكانت الشعوب
الضعيفة طعمة سائمة لهم هؤلاء وهؤلاء . كما هي الحال في وقتنا الحاضر فالأمم

(١) ولد عبد الله بن عامر بالمدينة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد دعا له بأن يسود
وقد استجاب الله دعوة نبيه . تجد ذلك مفصلاً مع تعداد آبائه في كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد
فليراجع ذلك من شاء .

الوادعة المستكينة فريسة لجشع الدول القوية رغم أنف عصابة الأمم المنهارة ومجلس الأمن المقام للذين أوجدتهما المدنية الحديثة لإقامة العدل وحفظ الأمن وصيانة حقوق الضعفاء كما يقولون !

إن البشرية لم تتقدم خطوة واحدة نحو الكمال الإنساني المنشود بل إن كل ما نراه من مظاهر التطور ، وكل ما نسمع به من دعاوى الطويلة العريضة للمحافظة على المبادئ الإنسانية القويمة إنما هي ستر وأغشية تتذرع بها الأمم القوية لتخفي وراءها وحشيتها المفترسة وما تكنه قلوب عتاتها من النوايا السيئة . وما تريد الإتيان به من أعمال العدوان حيال أخواتها من الأمم الوادعة في بلادها عند سنوح الفرص الملائمة . فالبشر لا نقل حالتهم اليوم عما كانوا عليه منذ ألفي سنة تقريباً حينما كان الناس يئنون من نير الفرس والرومان في ذلك الوقت والمدنية الحديثة لم تخفف من وطأة النفوس الجشعة شيئاً بالمرّة . إن لم نقل زادتها ضراوة واستئساداً .

ولسكن الذين يعتمدون في نشر سلطانهم على القوى المادية لا يلبثون أن يرتدوا على الأعقاب . وإن كنا نرى أن الماديين ينالون من الانتصارات التي يفاجئون بها الناس ما يسرهم . فإن سرورهم يمثل ذلك لا يدوم كثيراً . فالقوى المادية مهما بلغت بأصحابها من العظمة والهيول فهي لا تستطيع أن تثبت طويلاً أمام قوة الحق وحرارة الإيمان بالمعقيدة التي إذا اشتعلت في النفوس تصهر بأوارها أفتك ما يتذرع به الماديون لحماية أنفسهم وامتداد نفوذهم .

فليت أمة وانقرضت شعوب وبادت ممالك ودرست قوميات كانت مفقودة من القوى المعنوية وكانوا لا يعتمدون في البقاء على وجه الأرض محتفظين بكيانهم إلا إذا كان لهم من القوى المادية ما يكفيهم لأن يستندوا عليها في بقائهم . فلما جاءت الأمة

العربية تحت زعامة الحجازيين الذين زودوها بكل ما تحتاجه من القوى المعنوية التي هي نقطة دائرة الحياة ودفَعوا بها لمنازلة تلك الأمم والشعوب والممالك والقوميات ما لبثوا لها فواقاً حتى كان الاندحار والتقهقر في مقدمة ما منوا به من الدمار . وان لنا في هذه الحوادث التاريخية درساً بليغاً يجمل بنا أن نطبقه على حياتنا اليوم وغداً .

تقلص سلطان الفرس والرومان عن كثير من الممالك والشعوب أمام جنود العرب الذين لا نجد لهم من القوى المادية ما يجعلنا نناسب بينها وبين ما كان لدى جنود الفرس في القادسية وجموع الروم في اليرموك . وتغلّبت القوة الروحية التي كانت تدفع بالعرب لمنازلة أعدائهم على عظمة المادة وطغيانها ، وكان نصيب المادية أن هوت بأصحابها إلى الحضيض .

بعد هذه التجارب التاريخية المحققة يتضح لنا أن النفوس التي تستمد قوتها في طموحها - اليوم - من المدفع والأسطول والمدمرات والقاذفات لا تلبث إذا ما اقتقدت تلك المنشآت من موانئها وحصونها وهاتيك المفرقات من مخازنها ومستودعاتها أن تخنس خنوس الثعالب في أجحارها . وقد أرتنا هذه الحرب كيف خنست أمة الألمان بعد نفاذ ما بيدها من عتاد وعدة وهي أغنى الأمم الأوروبية وأقواها .

أما النفوس التي لا تستند في طموحها إلا على قوة إرادتها ومضاء عزيمتها لا تبالى ماذا يعترضها في سبيلها ، إذ غابتها في جهادها إحدى الحسينين : أما الصدر لأداء أمانتها وتبليغ رسالتها الإنسانية في العاجلة أو القبر لتتال شهادتها وتفوز بسيادتها السرمدية في الآجلة فتلك هي التي يكتب لها الفوز في ميادين النضال .

نعم ، لا ننفكران للماديين صولة ولكننا كزبد السيل لا تلبث أن تضمحل « فأما

الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

دعاني لكتابة هذه الكلمة في ترجمة العنون لهما ما نراه اليوم من تهويل الناس لأمر أوروبا وما هي فيه من العظمة الحربية وما أحدثت من مدموات ومخترعات تهويلاً تنخلع له قلوب الذين في قلوبهم مرض . فأردت أن أعود بالقراء إلى صدر الإسلام لعالمهم يتخذون من غلبة آبائهم لغيرهم ممن هم أقوى منهم عدة وأكثر منهم عدداً، درساً ينتفعون به وذكرى تستثير كوامن مؤهلاتهم المتحدرة إليهم من الآباء والأجداد . فإن الآباء والأجداد حينما كتب الله لهم الغلب في الأرض لم ينتصروا في مواقفهم بما أعدوه من قوى مادية اعتمدوا عليها في منازلة خصومهم . بل تراهم كسروا لما قالوا « لن نغلب اليوم من قلة » أما لما كانوا في فقر وفي قلة^(١) إلا من سلاح المتانة في الأخلاق والصبر على المسكاره والاعتماد على النفس والثقة بالله والتكاتف والاتحاد وترك الأثرة نصرُوا .. وكانوا إذا جاهدوا لا يبالي أحدهم أجاهد في سبيل الله أميراً أم خرداً عدياً سيان لديه مادام يؤدي واجباً تنازعه نفسه على أدائه ولا يرتاح ضميره دون القيام به قياماً بما يفرضه عليه دينه ووطنه وأمته، هذا السلاح هو الذي اندكت أمامه الحصون واستقادت لسطوته الأمم والشعوب .

وعلاوة على ما كان للفاتحين الأوائل من الانتصارات المتتابعة والفتوحات المتوالية لم تبطهم نعمة الله عليهم فما ظلموا لما حكموا ولم يتعدوا الحدود التي حددتها مبادئ الإنسانية القويمة التي علمهم إياها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . بل حكموا

(١) لا يظن ظان في أي أريد بذلك الدعوة إلى عدم إعداد العدد لمنازلة الخصوم أو أي داعية إلى التواكل والتعرض إلى الخطر ولكني أريد أن يتقدم إعداد العدة صفات يجب أن تكون في انقام الأول فيضمن النصر في المواقف إلى من يتعرضون لها .

رعايهم حكماً عادلاً رحيماً ترك لهم في قلوب الأمم التي صير الله أمرها إلى أيديهم ذكرى حسنة لا يمكن أن تمحى أبداً . فكان التأييد حليفهم في جميع ما أقدموا عليه من أعمال حسنة . وما جمدوا واكتفوا بما لديهم من سلاح بل كلما جد جديد أخذوا به وتعلموه وأتقنوه وقابلوا أعداءهم بسلاح يضاهي سلاحهم، ويزيد عليه منانة وجودة خلافاً لما عليه المسلمون اليوم .

أعود بعد هذا إلى التكلم عن المعنون لهما فلنا في سيرتهما برهان على ما كان عليه القوم آنذاك من الفطنة في حكم الشعوب المختلفة إذ كان ولائهم يحكمون كل قطر بما يناسبه ويسرون في كل أمة بما يلائمها حتى لتكاد سياستهم تكون المثل الأعلى لمن صدر نفسه لسياسة الشعوب . كانوا يتخرجون عن إتيان كل عمل يثير ضجة أو يحدث شغباً فلا ينتهكون الحرمات ولا يمتحنون المقدسات ، ويبتعدون ما أمكنهم عن كل ما من شأنه أن يثير المحكومين . وما أحوج أديعاء الدهاء والسياسة اليوم أن يتخذوا من سيرة هؤلاء الأقدمين أسوة حسنة يتأسون بها في إدارة الشعوب . إذاً لما نقم عليهم أحد من الناس .

سلوا العراق وفارس هل فازتا في جميع أدوارها التاريخية بمندوب سام أشفق أو أراف من عبد الله بن عامر المنتدب لحكمها من قبل الجالس على عرش الإمبراطورية الإسلامية - عثمان بن عفان - وسلوا مصر هل فازت فيمن انتدبوا لحكمها من قبل الحكومات المختلفة مثل مندوبى الحجاز من أضراب عمرو بن العاص إبان حكم عمر بن الخطاب، أو بمثل عبد العزيز بن مروان في زمن حكومة مروان بن الحكم . ما كان الخلفاء ولا الملوك الحجازيون يزودون مندوبيهم في حكم الشعوب

بأدوات القوة والقهر لإرهاب النفوس ولتثبيت نفوذهم في الآفاق فلم تكن لديهم من الغازات الخائفة والمواد المهلكة والأساطيل التي تحمل في أجوافها الوباء والسموم والطائرات وما تحتضنه من وابل المقدوفات الجهنمية للفتك بعباد الله الأمنين في ديارهم مثل ما نراه اليوم لدى الحكومات الجشعة لتثبيت أقدامها في حكم الشعوب . وإنما كانوا رضوان الله عليهم يزودون مندوبيهم في الأقطار باتباع أمثل الطرق في الأحكام والإبتعاد عن الظلم والمحافظة على الأخلاق الفاضلة والوفاء بالمعهود والمواثيق واحترام شعور محكوميتهم ونشر مبادئ الديمقراطية بين الطبقات المختلفة وأخذ الزكاة من الأغنياء وتفريقها على الفقراء لحفظ توازن المجتمع الذي يحكمونه ، وبث العلم ، والقضاء على الأمية والجهل ، وتوجيه الشعوب إلى ما فيه خيرها ورخاؤها مادياً ومعنوياً والأخذ برأى عقلائهم ومفكرتهم ومعرفة أقدار الناس ، فلا يهينون عزيزاً ولا يدلون سيداً ، والتحجب إلى الجماعات والتودد إلى الجماهير . بهذا وأشباهه كانوا يزودون ولاتهم فاستقام لهم الأمر من حدود الصين إلى تخوم أوربا .

عبد الله بن عامر

عهد عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين إلى عبد الله بن عامر بولاية البصرة وانتدبه للقضاء على الدولة الفارسية فقام بإعباء وظيفته في الحكم خير قيام وما لبث أن استمال قلوب الأهالي إليه واستطاع أن يسير بهم لغزو فارس والقضاء على دولة الأكرسة . فافتتح كثيراً من البلاد وانتصر في كثير من المواقع وقضى على دولة يزيد جرد آخر ملوك الفرس . ولكنه لم تذهب بابن عامر لذة الفتح ونشوة النصر

إلى التكبر أو التجبر . بل كان رفيقاً برعيته شفوفاً عليها عادلاً فيها ، ومما يذكركه له التاريخ أنه لما افتتح سجستان وجد أهلها يقصدون الأفاعى والقنافذ وبنات عرس فامتنع عن قتلها وأمر جنوده بعدم التعرض لها . فأنس به السجستانيون وأحبوه ولم يعدلوا بحكمه حكماً . وأنسأهم ما رأوه فيه من الرونة السياسية غيظ نفوسهم وأذهب عنهم الكره والتبرم اللذين يعتلجان عادة في صدور المغلوبين على أمرهم . وتلاشى كل ما كان في قلوبهم من الإكبار والتعظيم للوكههم وحكامهم الأصليين . إذ وجدوا من هؤلاء العرب أناساً لديهم من حب الإنسانية وتقدير العواطف ومراعاة الميول ما لم يجدوه عند الملوك والدهاقين من جنسهم ، فاطمأنوا إليهم وعز عليهم أن يفتقدوهم من بينهم .

لما حصلت الفتنة بين علي ومعاوية ونشبت تلك الحروب الداخلية بينهما ، آثر عبد الله بن عامر أن يكون محايداً وخرج من البصرة يريد الشام معتزلاً الفتنة فعز على رعيته خروجه وأسفوا على سفره ، يتمثل لك ذلك على لسان شاعرهم أبي العنبر حارثة ابن بدر حيث يقول :

أناني من الأخبار أن ابن عامر	أناخ وألقى في دمشق المراسيا
يطيف بحماي دمشق وقصره	بعيشك إن لم يأتك القوم راضيا
رأى قبل إنقاذ الفراض وقيعة	وكان إليها قبل ذلك داخيا
كأن الشريجات فوق رؤوسهم	بوارق غيث راح أوظف دانيا
فند نديداً لم ير الناس مثله	وكان عراقياً فأصبح شاميا

وكان رحمه الله كريماً متلافاً للمال فكانت هباته تحمل من البصرة إلى المدينة

المنورة لتفرق بين المهاجرين والأنصار . مما كان يفيض عليه من غنائم الفرس وناهيك بغنائم فارس ومقتنيات ملوكها التي آفأها الله على المسلمين على يديه . وله بالعراق إصلاحات عظيمة تمت على يديه . ومن كينسه الخاص أقام جسورا وافتتح شوارع ووسع أسواقاً^(١) وأشاد عمارة مما لا يسعنا تفصيله الآن .

ثم انه كان متحمسا للوحدة العربية الإسلامية، فكان يذهب إلى رؤساء الناس زمن الفتنة بين علي ومعاوية ويقول لهم « الله الله في أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم » وبالجملة فلقد كان أميراً فذاً وسياسياً كبيراً وزعيماً نادراً وسيداً كريماً . تضمن العوائق أن يلدن مثله وما بالك بمن يقول فيه الإمام على كرم الله وجهه حينما ذكر بحضوره « ذاك سيد فتيان قريش » ولقد حزن معاوية بن أبي سفيان على موته حزناً عميقاً يتمثل لك في قوله حين أخبر بوفاته « رحم الله أبا عبد الرحمن . فبمن نفاخر ؟ وبمن نباهي ؟ »

« عبد العزيز بن مروان »

اعتاد كتاب مصر أن يكتبوا عن كل مندوب سام حل ببلادهم المذكرى والتاريخ وهم حينما يكتبون إنما يكتبون اهتماماً للآثار التي يخلفها مندوبو الإمبراطوريات المختلفة التي قدر لها أن تضم مصر إلى حوزتها ، وما يتركه كل مندوب في نفوسهم من أثر ان حسناً أو قبيحاً ويوازنون بين عمل كل منهم ويعطونه حقه من التقدير أو الامتهان . فلأدع الكتابة عن هذا المندوب السامى - عبد العزيز بن مروان - الذى شب

(١) تذكر بعض كتب التاريخ أنه اشترى دوراً وهدمها لتوسيع سوق البصرة من ماله .

وترعرع بين حراء والمدينة وجبال تهامة فتكونت عقليته من الهامها ثم تصرفت في مقدرات الفطر المصرى بانتدابه لحكمه في خلافة أبيه ، للدكتور حسن ابراهيم أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب فى مصر فلقد تحدث لنا عنه هذا الكاتب المصرى فى عدد الرسالة الممتاز الصادر فى أول سنة ١٣٥٧ هـ فكفانى مؤونة البحث وعناء التحرير .

قال بعد كلمة وجيزة تحت عنوان «مظاهر الحكم فى مصر الأموية» بصحيفة ٥٠٠ وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر فى هذا العصر جاء فى صحبة أبيه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير ، وبقى فيها شهرين ولما عزم على العودة إلى الشام جعل صلات مصر وخراجها إلى ابنه عبد العزيز . وكان بعض المصريين فى ذلك الوقت على الشنآن لمروان ولبنى أمية ، فخاف عبد العزيز عاقبة مقامه فى هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه ، فرسم له هذه الخطة المثلثى التى ينبغى أن يسير عليها فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم ، وتبين له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا أسرهم عبد العزيز بجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالمودة ولين الجانب والبشاشة وبين لكل زعيم أنه من خاصته وبهذا وحده يتفانى الجميع فى خدمته ، ويجمع الكل على طاعته . يقول الكندى^(١) : قال عبد العزيز « يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أمية » فقال مروان : « يا بنى ، نعمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وواقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه

(١) المسعودى مروج الذهب ج ٣ ص ٣٦٦

إليك ، وقد جعلت أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً
وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض . أليس ذلك أحسن من إغلاقك
بابك وخمولك في منزلك ؟ »

هذه هي النصيحة الذهبية التي زوّد بها مروان ابنه عبدالعزيز عند توليته مصر ،
ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح في وصية أخرى ، ما يكفل له الراحة
والطمأنينة في هذا البلد عند رحيله إلى الشام ، فلقد أوصاه بتقوى الله في السر والعلانية
وبالبر بالفقراء وبتنفيذ وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، وأن تكون
المشورة رائده قبل الفصل في أمور الدولة ، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء ويأمن الفتن
والفلاقل . ولقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه ، فنجحت سياسته في مصر النجاح
كله ، وأتى في عهده بكثير من ضروب الإصلاح ، فبنى مقياساً للنيل ، وزاد في
الجامع العتيق من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة ، وأقام على خليج
أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط وكتب عليها اسمه وذلك
سنة ١٩ هـ وأخذ حلوان داراً لإقامته بعد أن أصيب بداء الجدام ، على ما يخالف قول
المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفشي الوباء في الفسطاط ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق
إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر تصل عيون الماء بالبركة ، وفي حلوان
غرس عبد العزيز النخيل والأشجار ، وبنى المساجد والمهارات الفخمة حتى قيل إنه
بذل في سبيل ذلك مليون دينار ، ولقد بلغ من عنايته بفرن العمارة والتمثيل أن ابنتي
في الفسطاط حماماً لابنه ذبان وأقام على باب هذا الحمام تمثالاً عجيباً من زجاج على شكل
امرأة وأطلق عليه أبو مرة وباسمه تسمت القيسارية التي كانت ملكاً لعبد العزيز باسم

قيسارية أبي مرة وكانت تعرف في زمن ابن دقاق المتوفى سنة ٧١١ هـ بمهام بثينة .
لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأتيج له أن يأتي بكثير من الإصلاح
واستطاعت البلاد في أيامه أن تظهر بمظهر النشاط الأدبي والمادى ، ولقد بلغ الشعراء
فيما أتاه هذا الوالى من أعمال البر والإحسان والكرم فقال بعض المؤرخين أنه كان
له ألف جفنة تنصب حول داره ومائة جفنة تحمل على المجلات ويطاف بها على قبائل
مصر وفي ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات كل يوم تمدها ألف قدر

هذا بالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن مروان فقد قيل أنه لم يترك
عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار عدا أملاكه في حلوان وقيسارية أبي مرة ،
وما خلفه من الثياب والخيل والرقيق . فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه
وعن ولايته وراثه الشعراء أحسن رثاء ، فقال سليمان بن ابان الأنصارى :

من ذا الذى يبني المكارم والملا ومن ذا الذى يهدى له السفر؟
فكنت حليف العرف والخير والندى فمن جميعاً حين غيبك القبر
فبعدك لا يرجى وليد لنفقه وبعمدك لا ترجى عوان ولا بكر

تلك هى مصر فى فترة من حياتها الإسلامية الزاهرة فى عهد عبد العزيز بن مروان
من بنى أمية . انتهى ما نقلناه من الرسالة .

فالمهم من كل ذلك أن يوازن القراء الكرام بين هذه العقلية الحجازية عقلية
مروان وابنه فى حكم الشعوب وبين العقلية الأخرى من الدين تداولوا حكم مصر

وغيرها من أبناء الأمم المختلفة الذين يتشددون بالعلم والمعرفة ويدعونها لأنفسهم ،
ويزمون العرب بالجهل والهمجية ليروا كيف أن الحجازيين لم يتكبدوا في حكم البلاد
ما تتكبده حكوماتهم وكيف قامت كلمات حكيمة لفظها الخليفة الحجازي من فيه بسهولة
أوحتها إليه سليقته وذكاؤه الفطري مقام الجنود الجرارة من ذوى الخوذات الفولاذية
المزودين بالديناميت المتفجر والتي مع تزويدهم بها ما استطاعوا أن يضمّنوا لأنفسهم
الاستقرار والهدوء كما فعل العرب ؛ وهيئات أن تبلغ سياسة أوربا في القرن العشرين
هذه التي قوامها الحديد والناز والتي جعلت العالم كأنه الأتون المتهب مدى مدينة العرب
وسياستهم في عصورهم الزاهرة ؛ تلك التي كان قوامها التحاب والإيلاف والتواد والتي
كان شعارها دواماً غصن الزيتون حتى رفرفت على العالم في زمانهم حمامة السلام .

الإمامان الجليلان

مالك بن أنس و محمد بن إدريس

أى ذكرى مؤلمة تثور في النفس الحجازية الصميمة إذا ما تذكر المرء أن هذين
الإمامين الجليلين ، الذين يقلدهما جزء غير يسير من المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم
من يوم أن كانوا أحياء إلى اليوم الذى نحن فيه دون أن يتطرق إلى مذهبيهما وهن
أو ضعف ، حجازيان ، أحدهما مكى والآخر مدنى وأنهما كانا في حياتيهما كهبة يحج
اليهما الناس من كل فج عميق . وما زال علمهما مورداً عذباً سائغاً للشاربين ، وما زالت
أقوالها حجة يحتج بها في أمور الفقه والتشريع ، وما زال يخضع لفصلهما وهما تحت
أطباق الثرى جميع الأحياء من المسلمين .

ذكرى مؤلمة تثور في النفس إذا ما تلقت المرء يمنة أو يسرة باحثاً في المجتمع

الحجازى عمن يماثلهما بين علمائنا اليوم فيرند إليه البصر خاستاً وهو حسير . أليس من المؤلم أن نرى حجازنا الذى أنجب فى ماضيه أمثال هذين الرجلين يعنى اليوم بهذا القحط المزرى من العلماء؟ وهو الذى لم يكن قبلاً من هو أعلم بكتاب الله وسنة رسوله من علمائه ولا أحرص عليهما من فقهاءه ، إن الأسف ليحز فى النفس ، وإن الذهول ليستولى على كل غيور أن يرى أمته اليوم وأبناء وطنه وليس فيهم من يقارب فى علمه وورعه ذلك الإمام الجليل - مالك - الذى ما زال مذهبه فى طليعة المذاهب الإسلامية وإن الدمع ليتفرق فى المآق أسفاً وحزناً على هذه الأمة البائسة التى فرطت فى ترأثها وأهملت فى بضاعتها حتى لم يبق فى أبنائها من يخلف الشافعى فى نبوغه وعبقريته ودأبه المتواصل على الإنتاج فى الفقه والأدب ، والقياس والاستنباط ، حتى أصبح قدوة يقتدى به الخلف بعد السلف على كر العصور وتعاقب الأجيال .

. . أين فى الحجازيين اليوم من يصلح أن يكون خليفة لأحدهما؟

يا سكان القبلة أليس لكم فى الشافعى أسوة؟ ويا أبناء طيبة لماذا لم تتخذوا من مالك قدوة؟

أبليق بكم يا جيرة الحرمين أن تروا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لا يوجهون أنظارهم إليكم كما يوجهونها إلى علماء الأقطار الأخرى حيث العلم الزاخر ، والمقل النير والحجة الدامغة؟

لماذا نرى علماء مصر - مع احترامى الشديد لمصر وعلمائها - ^(١) يتبؤون المقاعد الأولى فى صفوف العلماء؟ والحجازيون - لهفى على الحجازيين - الذين هم أولى من

(١) وما أقول ذلك حسداً للمصريين ، فإننى أجلمهم وأغبط وادى النيل الذى أنجبهم ، ولكنى أقولها إثارة للنفوس الحاملة من أبناء الحجاز .

غيرهم بالتفقه في الدين الذي جاء به رجل الحجاز وسيد العرب محمد بن عبد الله وأورشهموه، قابعون في دورهم لا تسمع لهم ذكراً، قانعين بأن يكونوا عالة على الغير، حتى إذا ما أراد حجازي أن يباهى بعلماء حجازه لا يجد ما يقوله ولا ما يقدمه للمباهاة غير الجلود والتقليد والتواكل والتكاسل. رضوا بما هم فيه فلا نقاش، ولا بحث، ولا تفكير، حتى أدى بهم ذلك إلى هذا الركود وهذا التقصير. اللهم إن هذا غير لائق بجزيران بيتك ولا هو بالمستحسن من سكان حرمك وحرم رسولك، « اللهم إن هذا باطل لا يرضيك ».

عفواً أيها العلماء فما هي إلا صرخة مفؤود يسمعه من حلمكم ما يأمركم به الدين فلکم في رسول الله أسوة حسنة حيث كان يفض عن الإساءة ويعفو عند المقدرة، فلقد شط القلم وما أريد الإساءة إلى أحد منكم وما أردت الانتقاص من احترامكم ولكن هي الذكرى المؤلة حزت في القلب، وفاضت على اللسان، فجزى بها القلم. والآن أعود إلى الكتابة فيما أنا بصده من ترجمة إمامينا الجليلين لعل ماسيسركم من أبنكم أكثر مما يفيظكم منه، ربما قاتم ليس الإمام مالك ولا الإمام الشافعي في حاجة إلى تعريف فما من أحد إلا وهو يعلم من هو الإمام مالك كما يعلم من هو الإمام الشافعي وهل يحدد أحد فضلها فيما وقفنا نفسيهما له من خدمة الشريعة السمحاء ونفع الناس.

وهنا يحق لي أن أجيّب فأنا لا أريد أن أتحدث عن الإمامين لأعرف الناس بهما ولا لأعرفهم أبين ولدا وكم قضيا من العمر، ولا أريد أن أتحدث عن مبلغ ما أوتياه من العلم، ولكن أريد توجيه الأنظار إلى مواضع العظمة في نفسيهما والتماس السر الذي من أجله كتب لهما به الخلود استثارة للنفوس لعلها تنفض عنها غبار الكسل،

ويهب الحجازيون لاستعادة مكانتهم ومكانة حجازهم بين الأمم والشعوب فلا يدعون غيرهم ينعم بمخلفات الأباء ويستلب تراث أجدادنا فيفوز بالتبجيل والتكريم بينما ذوو الاستحقاق من الأحفاد يفتنون في نومهم العميق غير حاسين بما افتقدوه من معنويتهم ولا مفكرين فيما ينتظرهم من سوء العقبى إذا هم استداموا على ما هم فيه من الانزواء عن الأعين والتوارى عن الأنظار مفضلين البقاء في الحجرات وخلف المقاصير طلباً للعافية على البروز في المجتمعات وهداية الجماهير في الأماكن العامة خشية ما يجره البروز من مختلف الشؤون والأقويل .

يعتبط المؤمن إذ يرى علماء المسلمين يكتبون ويتناقشون ، ويؤلفون ويستنبطون ويحدثون ويقتون ، فترام في المجتمعات مبشرين ومنذرين ، ويدوى الجو بأصواتهم التي يحملها الأثير إلى مختلف الأصقاع حاملاً رسالتهم التي أورثهم الله تبليغها للعالم ، فتسلسل كلماتهم وما تحمل من هداية ورشاد إلى الناس وهم على آرائكهم متكئين ، قياماً بواجبهم حيال الدين الحنيف والملة السمحة ، لا يألون وقوفاً أمام المذبايح ليذكروا للجماهير اليابان في أقصى الشرق ولأبناء أوربا في أقصى الغرب محاسن ديننا ترغيباً فيه ، دافعين اتهامات الملاحدة بحجج دامغة ، باذلين في ذلك جهدهم وقوة شكيمتهم في بيان فصيح وتمبير رصين ؛ فيرضى الله عنهم في عليائه ، ومحمد في قبره ، والملائكة بهم فرحون ، والناس بهم معجبون . إنما الذي يحز في النفس من كل هذا أن لا نرى بين هؤلاء الأعلام في جهادهم المشكور أثراً للحجازيين الذين تقضى عليهم وضعية بلادهم أن يكونوا في الطليعة قياماً بواجب دينهم الذي ما بزغت أنواره على العالم إلا من ربوعهم .

هذا القصور من الحجاز في الوقت الحاضر هو الذي يملأ النفس أسى والقلب حسرة
فإذا ما ذكرَّ الناس بمالك والشافعي أرجو أن تتنبه الأنفس لحاضرها ويعلم المواطنون
أن الحجاز ما كان كذلك في ماضيه لذلك أريد أن أتكلّم عن هذين الإمامين . والله
تعالى يقول في كتابه وهو خير القائلين « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وإني
تارك للقلم عنانه فليكتب كيفما تسعفها الكتابة ويحلولة التصوير وعسى أن يشفع لي
حسن قصدي وسلامة نيتي فيما يجري به من تعبير .

« مالك بن أنس رضي الله عنه »

كان يقول المسلمون « لا يفقى ومالك بالمدينة » يوم كان مالك يدوى صوته في
مسجد صاحب القبر الأعطر ، فمتجاوب الأقطار الإسلامية بصدى صوته ، ويدعن
الناس لفتواه ولا يجراً عالم مهما كانت منزلته أن يفقى ومالك بالمدينة لأن مالكا أعلم
الناس بدين الله وسنة رسوله . أما اليوم فلا يتوقف علماء المسلمين عن الفتوى لأن
مالكا قد مات وطوته الأرض وليس بالمدينة من يخلفه .

ليبك من شاء من الحجازيين دماً ، ولتتمزق أكبادهم حسرة على ما فرطوا ،
فليس لديهم اليوم عالم له من المسكنة ما كان للمالك وليس لدينا من يستحق أن يلقب
بمد مالك بـ « إمام دار الهجرة » أتعلمون لماذا كان للمالك من المسكنة ما كان ؟ لأنه
« كان كامل النفس لا يزيد مع الخلفاء عن الأدب الذي يوجبه عليه الدين . قدم المهدي
المدينة فبعث إليه بالثمن دينار فقبلها ثم وجه إليه الربيع يطلب منه ملازمته إلى مدينة
السلام فقال له قل لأمير المؤمنين المال عندي على حاله . » (١)

كما أنه « كان شديد الحرص أميناً على العلم ، قال جرير إن أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على موطنه ، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق لهم وعملوا به ودانوا وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديداً فدفع الناس وما هم عليه . » (١)

ولأنه كان لا تأخذه في الله لومة لأثم فلا يبالي بالجلد ولا السجن حتى القتل كان لا يبالي به مالك في سبيل ما أوتيته من العلم . وكان لا يداجي في دين الله الأمراء ولا الملوك ، ويقول الحق ولو فيه ذهاب نفسه وما كان سبب جلده وخلع كتفه إلا قول الحق الذي أمر الله العلماء أن يجهروا به فيصدق حينذاك عليهم القول المأثور « العلماء ورثة الأنبياء » .

فإذا جهر العلماء ولم يخفوا ما علمهم الله خشية من الله كانوا ورثة الأنبياء بحق وإذا كتموا العلم الذي أتاهاهم الله من فضله خشية من الناس حقت عليهم الكلمة المأثورة « كاتم العلم ملعون » .

كان مالك رحمه الله من الصنف الأول وكان ما ذكرناه من خصاله التي تتجلى في أقواله وأفعاله السبب الوحيد الذي كتب لمالك به الخلود ، لا كما قد يسبق إلى الأذهان من أن خلوده لكثرة علمه ومظاهر ورعه . لذلك تمذهب الناس بمذهبه وقلدوه في عبادة ربهم ، فقد كان رحمه الله لم يطلب العلم طمعاً في جاه ولا رغبة في دنيا يصيبها أو سلطة يتعالى بها ، ولكنه طلب العلم ابتغاء وجه الله فأحيا الله ذكره طيلة هذه الأجيال ، وسبق مالك حياً بعلمه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

« الامام الشافعي »

لما كان الشافعي رضي الله عنه كثير التجوال وصادف أن مات بمصر تنازعه الناس فكل قطر يدعى أنه من أبنائه . والحقيقة أن الشافعي حجازي قرشي ، صحب أبوه أمه وهي حامل به في بعض أسفاره فولد بغزة من أرض الشام وما لبث أن توفي أبوه فعادت به أمه إلى مكة مما يدل أن موطن أسرته مكة . فلما ترعرع ذهب إلى هذيل طلباً لتقوية لسانه على النطق باللغة العربية الفصحى وكانت هذيل تتكلمها بدون أن تلحن فيها ، وما زال فيهم بقية إلى يومنا هذا يتكلمون باللغة العربية الفصحى لولا ما بتخللها من لهجة بدوية تجعل فهمها عسيراً على المتحضرين من أهالي مكة إلا من يحثك بهم في المعاملة حين يهبطون مكة ليمتاروا منها .

وقد اكتسب الشافعي من مقامه بين قبائل هذيل عذوبة في اللفظ وفصاحة في التعبير فقال الشعر وأحسن البيان . وكان يجلس مع عشيرته في الأبطح - حيث كان منزله - ويتحدث إليهم ، فأعجب أحدهم بفصاحته وأشار عليه أن يضيف إلى ملكته البيانية فقهاً في الدين فسأل عمن يصلح أن يؤخذ عليه الفقه فدُلَّ على مالك بالمدينة . ولما كان الشافعي فقيراً ليس لديه ما يمكنه من السفر ذهب إلى طوى . فوجد قافلة تزعم السفر إلى المدينة ففرض نفسه على أصحابها فحمله أحد المسافرين على بعير له حتى بلغ المدينة واتصل بمالك .

سقنا هذا للدلالة على حجازية الشافعي أولاً ومكيبته ثانياً ردأ لمن عساه أن يدعيه أو ينسبه لقطر آخر غير القطر الحجازي . نعم ذهب الشافعي إلى اليمن والعراق وتنقل بين القرى والأمصار طويلاً ثم ألقته عصا التسيار إلى مصر وبها توفي . وما كانت كل تلك الأسفار إلا طلباً للعلم وشفقاً بأهله وحباً في الاستراة منه والتوسع فيه

والاطلاع على ما لم يكن في وسعه الاطلاع عليه وهو مقيم ببلده قابع في موطنه . وقد
أثرت هذه الأسفار في تكوين عقلية الإمام الشافعي وساعده ذكاؤه النادر على صهر
تلك العلوم المتنوعة والأقوال المختلفة التي سمعها من علماء الأقطار الإسلامية في بوتقة
عقله وإبرازها إبرازاً جميلاً منسقاً واستطاع أن يختط لنفسه طريقة فنية - لم يسبقه
أحد من علماء زمانه إلى اكتشافها - فاعتمد عليها في نشر مذهبه وبرهن بذلك على
استقلاله في الفتوى عمن سواه . وقد رأى الناس أن طريقته التي وفق لاكتشافها
تصلح أن تكون ميزاناً عاماً توزن بها النصوص الشرعية لتمييز قويمها من ضعيفها
فاتبعوها وزادوا فيها كما سيأتي . وهذا سر خلوده وعظمته وقد أدهش الشافعي غيره بنبوغه
وعبقريته واعترفوا له بالفضل عليهم يقول ابن هشام: « ما ظننت أن الله عز وجل خلق
خلقاً مثل هذا الإنسان » وقال أحمد بن حنبل: « ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث
إلا وللشافعي عليه منة وما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالسته ، وكان أفقه
الناس في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكان كالشمس للدنيا والغافية
للناس وليس منه عوض » .

ولقد أجمع المؤرخون على « عدوبة منطقه وحسن بيانه وذكائه وقدرته الفائقة
على الجدل وقوته في التفكير ومهارته في الاستنباط » قال الربيع : « كنا جلوساً في
حلقة الإمام الشافعي بعد موته بيسير فوقف علينا أعرابي ثم قال « أين قر هذه الحلقة
وشمسها » قلنا توفي . قال رحمه الله وبكى بكاءً شديداً ، ثم قال رحمه الله وغفر له ، كان والله
يفتح بيانه منغلق الحجة ويسد من خصمه واضح المحجة ويفسل من العار وجوها
مسودة ويوسع بالرأي أبواباً منسدة .

أنظر كيف وصل صيته إلى القفر بعد أن عم الأمصار فجری الثناء عليه على السنة

الأعراب أيضاً ويقول محمد بن الحكم: لزم الشافعي فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقهاء، كان صاحب سنة وأثر وفضل مع لسان فصيح وعقل رصين صحيح .

أما الخطة الفنية التي اكتشفها الشافعي لوزن النصوص ومعرفة تميز الصحيح والسقيم منها والتي لم يسبقه أحد من العلماء إلى اكتشافها فهي وضعه (علم الأصول) يقول الرازي: «واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض ، وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطاطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ولكن ما كان عندهم قانون ملخص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة فإن مجرد الطبع إذالم يستعمل بالقانون الكلي قلما أفلح فلما رأى أرسطاطاليس ذلك اعتزل الناس مدة مديدة واستخرج علم المنطق ووضع للخلق بسببه قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين . وكذلك الشعر وكانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعاراً وكان اعتمادهم على مجرد الطبع فاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً في معرفة مصالح الشعر ومفاسده فكذلك - ها هنا - الناس كانوا قبل الإمام الشافعي رضي الله عنه يتكلمون في مسائل الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها فاستنبط الشافعي رضي الله عنه علم أصول الفقه ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرح فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسطاطاليس إلى علم العقل . واعلم أن الشافعي رضي الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف الرسالة وفي واحد منهما علم كثير والناس وإن أطنبوا بعد ذلك في علم أصول الفقه إلا أنهم كلهم عيال الشافعي

فيه لأنه هو الذي فتح هذا الباب والسبق لمن سبق . »

هذا هو الشافعي وهذا مبلغ ما وصل إليه من كرهه العلمى حتى بز علماء زمانه فهل يسعد الحجاز الحظ ونرى بين علمائنا من يعيد لنا ذكرى الشافعي في أدبه ودأبه المتواصل في العلم والإنتاج؟ هذا ما نتوقع أن نراه قريباً لو كنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

« عبد العزيز الكناني »

كتبت مجلة المنهل في عددها الأول الصادر في شهر ذى الحجة سنة ٥٥ تحت عنوان عالم عبقرى من الحجاز في صحيفة ١٢ وما بعدها . ترجمة وافية عن عبد العزيز الكناني يحسن نقلها إلى هذا الكتاب كما جاءت بدون تغيير ولا تبديل قالت المنهل : ونفى بهذا العالم الموهوب عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم الكناني المولود بمكة في القرن الثاني الهجرى والمتوفى سنة ٢٤٠ فهذا العالم الحجازى المحقق كان من أولئك العلماء الأفاضل الذين جمعوا إلى سعة الاطلاع والتبحر في الشريعة الإسلامية غزارة في الأدب وفصاحة في اللسان وقوة في الملكة البيانية ونرى أن لسمو أدبه وتضلمه من اللغة العربية أثراً بالغاً في تسنمه الذروة العليا من التفوق والنبوغ . فالعلم الغزير يمدد أدب ناضج بتياره يكون له من قوة التأثير والروعة ما يجيء دونه الوصف . ولعبد العزيز الكناني فوق ذلك قريحة خصبة مواتية وذكاء فائق وبصيرة نافذة ورأى سديد موفق ومنطق جزل وبراعة ما فوقها براعة في أساليب الحجج والمناظرة .

« إلمامة بأحوال عصره »

وقبل أن ندخل في أصل الموضوع نرى لزماً أن نعهد بمقدمة نستعرض فيها أحوال عصر هذا العالم الكبير لنعلم مدى تأثره بالوسط الذي عاش فيه . كانت البيئة التي نشأ فيها عبد العزيز زاخرة بضروب الرقي الاجتماعي والفكري والديني والاقتصادي فقد تأصلت جذور الإسلام وانتشرت فروعه في مشارق الأرض ومغاربها . وامتد رواق الدولة العباسية في الآفاق واستراح الناس من القلاقل وهدأت الخواطر وانصرفت الأمة إلى الاستثمار . إذاً فهذا العصر عصر استقرار بعد الاضطراب . لقد بلغت الفتوحات الإسلامية حدوداً نائية في نواحي المعمورة وأخذت الثورات الداخلية والخارجية فلاغرو إذا توجهت الأمة والحكومة معاً إلى مناهل العلم والمعرفة . هذا هرون الرشيد يتخذ مجلساً للعلماء والأدباء والشعراء ويصطفى منهم من يراه أهلاً للاصطفاء وهذا ابنه وخليفته المأمون ينحو هذا النحو فيمنع فيه إمعاناً عظيماً . سوق العلم رابحة وسوق الأدب نافقة . المساجد عامرة بحلقات الدروس والقصور مملوءة بالمتذكرين والبلاد تخرج برواد العلم وعشاق المعرفة ينسلون إليها من كل صوب وحب هيا بنا يا فلان لترحل من أندلسنا أو مصرنا إلى المدينة المشرفة أو إلى مكة المعظمة لنعترف من بحر علومهما العزيز . وهيا بنا يا زميلي إلى بغداد عاصمة الخلافة لنكتسب من معارفها الفياضة وهيا بنا يا أخي إلى اليمن الميمون أو إلى مصر الزاهرة أو الشام الناضرة . كل هذه الأقطار ميادين فسيحة مزدانة بأفنان المعرفة المثمرة على اختلاف ثمارها ، وجمال ألوانها . الحضارة العربية الإسلامية في أوجها الرفيع والدولة الفتية تغذيها بجهود جبارة . وتمطف على العاملين في إنمائها عطفاً ما مثله عطف . بدر الذهب

تلقى بين أيديهم من كل صوب والجوائز والصلوات لا تنقطع عنهم صباح مساء .
كان طبيعياً من كل هذا أن ينتج هذا الوسط الراق فحولا في العلم والأدب .
والإسلام دين يسر وتسامح وبحث وعلم وتفكير . في هذا الوسط المليء بالنهضة
الفكرية والحرية الفكرية نشأ عالمنا في كنف بلد الله الحرام وقبلة المسلمين ومجمع
الحجاج الوافدين من نواحي الأرض ، نشأ نشأة علمية مزدهرة بالتقوى والصلاح
فكان نجما من نجوم العلم التي سطعت في سماء الحجاز فازدان بطلوعه الحجاز وسار
ذكره في الآفاق .

« شخصيته ومواهبه »

يروى لنا الكناني عن نفسه أنه كان دميماً . ونحن لا يعنيننا وصفه من هذه
الناحية بقدر ما يعنيننا أن نكشف عن مواهبه الفكرية ومزايه العلمية : فالمرء بأصغريه
قلبه ولسانه . لقد أخذ الكناني العلم عن كثير من جهابذة عصره ومنهم سفيان
ابن عيينة واختص من بينهم بأستاذه محمد بن إدريس الشافعي فقد لازمه مدة مديدة .
واشتهر بصحبته . وخرج معه إلى اليمن . ومن هنا نستطيع أن نتوصل إلى الكشف
عن سر نبوغه وأسباب عبقريته . فالتلميذ سر أستاذه . وقد عرفنا عن الإمام الشافعي
أنه كان عذب المنطق حسن البيان ذكياً ذا قدرة فائقة على الجدل وقوة في التفكير
ومهارة في الاستنباط وكان ذا ثقافة لغوية واسعة ، وثقافة أدبية عالية ، وثقافة في
الحديث . رحل في طلبه إلى بلاد كثيرة منها اليمن الذي رافقه في الرحلة إليه
تلميذه المترجم .

وكان الشافعي ذا ثقافة في الفقه على نمط مدرسة الحجاز . وثقافة في الرأي على

نمط مدرسة العراق ، وثقافة اجتماعية من مشاهدته لحياة البدو في البادية فقد رحل في طلب الأدب إلى هذيل ومن مشاهدته الحضارة الأولية في الحجاز واليمن ومن مشاهدته الحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر . وهذا كله كان ذا صلة وثيقة بتكوين ثقافة عبد العزيز ، ومواهب عبد العزيز وتفكيره وعلمه :

ألم يلزم أستاذة مدة مديدة ؟ ألم يرحل معه في طلب العلم ؟ ألم يتفقه عليه ؟ فإذا كان الشافعي حسن البيان فليكن هكذا تلميذه البارع . وإذا كان ذا قوة على الجدل والتفكير فمن حق تلميذه أن يحوِّك على منواله . وإذا كان الشافعي ذا ثقافة واسعة في الدين والأدب واللغة فلينتطحع عبد العزيز الكناني بهذا الطابع الجميل من هذه الثقافات المحبوبة . هذا إجمال سنعني فيما بعد بتفصيله وتحليله وعرضه عرضاً شافياً على ضوء من كتابة الكناني نفسه تغير ما يدل على حقيقة المرء آثاره .

ذكر الرواة أن للكناني مصنفات عديدة منها كتابه (الحيدة) الذي هو خلاصة وافية للمناظرة الهائلة التي جرت بينه وبين بشر المريسي بشأن خلق القرآن في بغداد بحضرة الخليفة المأمون وبرأسته وتحكيمه ، ويلوح لنا من دراسة هذا الكتاب الضئيل الحجم الغزير العلم انه إنما أملاه صاحبه إملاءً في بلده مكة وذلك بعد أن أذن الله بعودته من بغداد منصوراً .

وإن هذا الكتاب ليعان عن مقدرة صاحبه البيانية ومقدرته الكلامية ومقدرته العلمية واللغوية والأدبية ، هو دائرة معارف إسلامية مختصرة للعصر الذي ألف فيه ، وهو كشف وضاء لسمو العقلية العربية الخالصة ، ومواهب العقلية الحجازية الصافية هو عنوان البطولة العلمية الخالدة . ولقد وصف لنا الشيء الكثير مما وقع تحت بصره من أساليب الإدارة في العصر العباسي وأبان عن مناظر مجالس المناظرات في بلاط

المأمون وفي هذا الكتاب عرض لنا الكنفاني قصة مناظرته مع بشر الميرسي عرضاً بليغاً لما أنه دخل إلى قصر الخلافة خائفاً يتربص الموت من كل مكان ، وخرج منه منتصراً طافح الجبين بالبشر والسرور . يالك من مناظر محقق ، وعلامة عبقرى .
ها هو الكنفاني يلعب ببشر في معرض المناظرة المعقودة على مسمع من الخليفة العظيم الرهيب . وها هو يجندله مراراً ويهزمه تكررآ ، ويعصف بأقواله عصف الرياح المرسله ليابس الأشجار . وها هو يلجمه إجماماً ، ويفحمه إجماماً .

لقد ادعى الميرسي أن جعل في قوله تعالى « جعلناه قرآناً عربياً » وفي سائر القرآن هي بمعنى (خلق) فرد عليه الكنفاني رداً علمياً لغوياً رائعاً وأدحض حجته ، وأزحق فكرته مستشهداً بهذه الآيات : « وأوفوا بعد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » ، « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم » « ويجعلون لله البنات سبحانه » فلو كانت جعل في هذه الآيات بمعنى خلق كما زعم بشر لكان المعنى : وقد خلقتم الله ولا تخلقوا الله ويخلقون لله البنات ، وهو معنى في غاية البطلان ولا يسع أحداً حتى بشر إقراره . ها هو بشر ينهزم أشنع هزيمة . وها هو المأمون يسجل عليه هذا الانكسار كما يسجل لخصمه هذا الانتصار .

ويتأدى الكنفاني في تدليله وتحليله لمادة (جعل) ومعانيها اللغوية فيفيدنا بأن جعل في القرآن على معنيين : الخلق والتعبير ، فجعل التي بمعنى الخلق لا تتطلب إلا مفعولاً واحداً وهي في هذا نظيرة مرادفتها (خلق) ويستشهد على ذلك بقوله تعالى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » و « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » أى خلق لكم السمع وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً . أما جعل ذات معنى التصيير فتطلب مفعولين اثنين شبيهة مرادفتها (صير) ويستدل على هذا بالقرآن أيضاً :

« إنا جعلناه قرآناً عربياً » ، « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض » ، « وجاعلوه من المرسلين » ، « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » أى إنا صيرناه قرآناً عربياً ويا داود إنا صيرناك خليفة ، ومصيره من المرسلين ، وصيرناه دكا . هنا ينقطع بشر وتسود الدنيا في وجهه ، فقد كان الخليفة في كفته على خط مستقيم ، وها هو ينقلب عليه بخط مستقيم إذ أبان له جهله واتضح له أنه مكابر ويسلك سبيل الحميدة عن الجواب كلما ألجأه عبدالعزيز في المناظرة إلى الاعتراف بالحق الصراح . وها هو المأمون يقبل بكليته على الكناني ويستحسن آراءه ويقابلها بالتسليم التام والقبول والامتنان لقد هدم الكناني نظريات مناضله في خلق القرآن من شتى الوجوه . من الوجهة الشرعية والوجهة اللغوية حتى من الوجهة المنطقية التي كان يعترضها بشر لما كان عبد العزيز يناظره ويدمغ باطله بنصوص القرآن العزيز .

لقد أثبت عبد العزيز إثباتاً حقاً أن القرآن كلام الله غير مخلوق وباء بشر بالفشل التام وعاد عبد العزيز يحمل أوية الظفر التام . هذا ظفر تاريخي للحجاز على بغداد فلتسجله يا تاريخ الحجاز على صفحات من نور . هذه بغداد تحتفل بهذا الضيف الحجازي معترفة بمقدرته ورجاحة عقله مطأطئة الرأس أمام نبوغه وعبقريته خاشعة أمام بطولته وبراعته . لقد دخلها بأئساً بأئساً مستقتلا في سبيل إعلان الحق . ها هي تنبهر من موهبه وتبهج باكرامه وتقديره . وها هو الخليفة يشاركها في هذا التقدير فيمنحه جائزة سنوية هي عنوان التقدير والإعجاب ورمز الإكبار ، وفي هذا يروى لنا الكناني ما نصه .

« فقال المأمون أحسنت يا عبد العزيز ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم فحملت بين

يدى وانصرفت من مجلسه على أحسن حال وأجملها فله الحمد على تسديده وتوفيقه ،
وسر المسلمون جميعاً بما وهبه الله لهم من إظهار الحق وقمع الباطل ، وانكشف عن
قلوبهم ما كان يكتنفها من النعم والحزن ، وجعل الناس يخيئون إلى أفواجاً ، حتى
أغلقت بابي واحتجبت منهم خوفاً على نفسى وعليهم من مكروه يلحقنا . »

« نعيان بن عمرو الأنصارى ^(١) »

الإنسان مجبول بفطرته على الترويح عن نفسه من عناء ما يتحملة من السعى
وراء موجبات الحياة ومهامها ، وكما أن للجو والمناخ تأثيراً عظيماً في تكوين الإنسان
الجسمانى والعقلى . كذلك للجو والمناخ تأثير عظيم في تكوين الأمزجة والأذواق .
فإذا منحت الطبيعة قطراً من الأقطار من مباحجها ما يروح بها عن أنفس سكانه
كان سكان ذلك القطر - كما يبدو لى - أقل فكاهاة وأضعف ظرفاً من غيرهم ممن
بخلت عليهم الطبيعة فلم تمنحهم من مبدعاتها ما يكفل لهم الترويح عن أنفسهم بالوجه
الأكمل ، وذلك بحكم طبيعة الإقليم فقد يكتفى الأولون في الترويح عن أنفسهم بما
لديهم من جمال الطبيعة فيقضون أوقات فراغهم ويذهبون هموم أنفسهم بالتأمل في
محاسنها ويستغنون بذلك عن سواه ، ويحس الآخرون بالنقص في ترويح أنفسهم ،
فيسعون للاستعاضة عما أحدثته طبيعة إقليمهم من عدم توفر الجمال الطبيعى فيه
فيجتهدون في أن يضيفوا على حياتهم من جمال نفوسهم ما يجعلها أخف عبئاً وأكثر

(١) لم ألتزم في هذا المؤلف ترتيباً ، فكلما وقع في نفسى اسم خالد من رجالات الحجاز

كتبت عنه وأثبتته .

مرحاً من حياة غيرهم ، فيرسلون الفكاهات العذبة والمداعبات البريئة والنكات
البارعة في مجالسهم ومنتدياتهم ، وبذلك يكونون أكثر ظرفاً من سواهم .

... وقد يؤدي جذب الإقليم وقسوة الطبيعة فيه إلى إمعان سكانه في المجون
للترويح عن أنفسهم حتى يؤدي بهم ذلك إلى الخفة والطيش ، وتستولى هاتان الخصلتان
على أخلاق سكان ذلك الإقليم فيذهب آثرانهم ، ويكونون إلى البلادة والنزق أقرب
منهم إلى الفطنة والظرف .

والقطر الحجازي لم تمتححه الطبيعة من سحرها وجمالها ما يدعو إلى ثقل الروح ،
ولم تقس عليه قسوة تؤدي به إلى الخفة والطيش ، وقد عمل هذا الاعتدال عمله في
أمزجة الحجازيين وأذواقهم ؛ وكان من تأثيره أن صفت نفوسهم ولطفت أرواحهم ،
وأرھفت إحساساتهم ، واشتعلت جذوة الذكاء فيهم ؛ فجاءوا كبار الأحلام ، رقيق
الحاشية ؛ وجاءت نفوسهم أشوق النفوس إلى الحياة السامية من جميع نواحيها .

فبينما نراهم يطلبون الآخرة ويعملون لها فيزهدون في نعيم الحياة ويقنعون بما
قسم لهم من الرزق ، نجدهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا فينفرون خفياً وثقلاً
لفتح البلاد وغزو الأمصار ، ويبدون من المهارة في سياسة الشعوب وتصريف الأمور
ما ينالون به الإعجاب والإكبار ، وهم في كل ذلك يخلطون حياتهم الجدية بشيء من
الهزل مما يجعل حياتهم مرحلة نشيطة ويزدادون بذلك مثابة على عظام الأمور .
لذلك لا نرى موقفاً من مواقفهم الرهيبة إلا وتخللته دعابة كدعابة عمرو ابن
العاص في وقعة صفين حينما طلب على من معاوية المبارزة ، فقال عمرو لمعاوية : لقد
أنصفك أبو الحسن ، فأجابه معاوية : لقد نفست على الخلافة يا عمرو ، والله لا يبارزه

أحد غيرك، فبرز عمرو لعلى وهو عالم أنه ما من أحد يبارز علياً إلا غلبه، فلما تلاقيا انهزم عمرو واستلقى على ظهره وتعمد كشف عورته فتركه على وضحك الناس ونجا عمرو .
وقلما تجرد علماً من علمائهم ، أو ناسكاً من نساكهم ، أو حاكماً ، أو أميراً ، أو ملكاً إلا وجدت في أقواله وأفعاله ما يدل على خفة روحه وظرفه الطبيعي المتغفل في صميمه هذا عبد الله بن عمر بن الخطاب كان عبداً زاهداً ناسكاً مشهوداً له بالفضل والحجا ، له غزل يقطر رقة وعدوبة مما يدل على جمال نفسه وظرف شخصيته ، وهذا أبوه عمر ابن الخطاب الرجل العظيم كان يتغنى بالشعر ويقول « إذا خلونا صبونا » بل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس وأعقلهم كان يمزح مع أصحابه ولا يقول إلا حقاً ، وكثير من أجلاء الصحابة من الأنصار والمهاجرين لهم من الأقوال والأفعال ما يدل على خفة أرواحهم وظرفهم البالغ مع ما لهم من متانة الأخلاق ، وعلو الهمة ، وقوة العقل ؛ صحيح أن لكل أمة ظرفاً قائماً بنفسه يتناسب ومزاجها ولكنه ناشئ من التعليم والتقليد .

أما الظرف الحجازي فهو ظرف طبيعي جاء مع أصل الخلقة ومن تأثير الجو والمناخ وطبيعة الإقليم ، فكما أن العربي الصميم كان يقول الشعر المقفى الموزون بسليقته ، كذلك أتى الحجازي ظريفاً بلفظه ؛ يتضح لك ذلك من المشاهدة ، فإنك ترى من أعراب الحجاز ظرفاً لم تتوقع أن تراه منهم مع بعدهم عن كل ما يمت إلى الحضارة والعلم بصلة ، ولا ترى في فلاحى الأمم الأخرى وبدوها ما ينم عن ظرف متواصل في نفوسهم مع قربهم من أما كن اللهو المنظم في عواصم بلادهم المتحضرة ؛ وقد سبق أن قلنا أن لكل أمة ظرف وظرف كل أمة يتفق ومزاجها بحسب اختلاف الأذواق كما ترى ذلك بيننا في اختلاف مشارب أهل المدينة الواحدة ، فلكل جماعة ظرف

يختلف عن ظرف الجماعة الأخرى ، ولكل فكاهة تمثل مستواه الخلقى ، ومبلغ
حظه من الآداب العامة .

ونعود إلى الظرف الحجازى فنقول إنه ظرف غريزى جاء مع أصل الخلقه - كما
بيننا - فحياتهم لا تخلو في جميع أدوارها من كثرة الظرفاء وجمهرة المتطرفين حتى ملئت
كتب التاريخ الحجازى بما يضحك الشكلى من أقوالهم وأفعالهم ، واشتهر كل عصر
بأشخاص نبغوا في الظرف والفكاهة ، وقد كان عصر النبي صلى الله عليه وسلم يزخر
بالظرفاء والمضحكين رجلاً ونساءً ، وكان عليه السلام يأنس بهم ويلطفهم ويبتسم
لما يبدو منهم من الأفعال المثيرة للضحك ، وما كان ينكر عليهم شيئاً من ذلك . ومن
أشهر ظرفاء الصحابة رضوان الله عليهم نعيان^(١) بن عمرو بن رفاعة الأنصارى ، وكان
ممن شهد العقبة وبدراً والمشاهد بعدها ، وكان كثير المزاح يضحك النبي صلى الله
عليه وسلم من مزاحه . خرج أبو بكر إلى الشام ومعه نعيان وسويبط بن حرملة
وكلاهما بدرى وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيان ، فقال : أطمعنى ، فقال لا . حتى
يحيى أبو بكر ، وكان نعيان رجلاً مضحكاً فقال لأغيظنك فجاء إلى أناس جلبوا
أظهرا ، فقال : ابتاعوا منى غلاماً عربياً فارهاً ، وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ،
فإن كنتم تاركوه لذلك فدعوه ، لا تفسدوا على غلامى ، فقالوا : بلى ، بل نبتاعه منك
بمشر قلائصها فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلمها ، ثم قال دونكم هو هذا
فجاء القوم فقالوا : قم قد اشتريتناك ، فقال سويبط : هو كذاب أنا رجل حر ،
فقالوا قد أخبرنا خبرك فطرحوا الحبل فى رقبتة وذهبوا به ، فجاء أبو بكر فأخبر ،

(١) من هنا إلى آخر المقال منقول من التراتيب الإدارية للشيخ عبد الكبير الكتانى ج ٢

فذهب هو وأصحاب له فردوا القلائص وأخذوه ، فلما عادوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه الخبر ضحك هو وأصحابه . وروى عياد بن مصعب من طريق ربيعة ابن عثمان قال : أتى اعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لنعيمان لو نحرتها فأكلناها فإننا قد قرمنا إلى اللحم ويقرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنها ، فنحرها نعيمان ثم خرج الإعرابي فرأى راحلته ، فصاح واعقراه يا محمد ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : من فعل هذا ، فقالوا : نعيمان فاتبعه فوجدوه في دار ضباعة بنت الزبير ابن عبد المطلب مستخفيا ، فأشار إليه رجل ورفع صوته ويقول : ما رأيته يا رسول الله وأشار بإصبعه حيث هو ، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : ما حملك على هذا ، قال : الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمروني ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح وجهه ويضحك ، وغرم ثمنها .

وكان لا يدخل نعيمان المدينة إلا اشترى منها ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : هذا هدية لك فإذا جاء صاحبه يطلب نعيمان بثمنه أحضره إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : اعط هذا ثمن متاعه ، فيقول : أو لم تهده لي ، فيقول : والله إنه لم يكن عندي ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه . وقال الزبير حدثني عمي عن جدى قال : كان مخرمة بن نوفل قد بلغ مائة سنة وخمسة عشر سنة فقام في المسجد يريد أن يبول فصاح به الناس المسجد المسجد ، فأخذ نعيمان بيده وتنجى به ثم أجلسه ناحية أخرى من المسجد ، وقال له : بل ها هنا قال فصاح به الناس ، فقال : ويحكم ومن أتى به إلى هذا الموضع ، فقالوا نعيمان ، فقال : أما إن لله

على إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ به ما بلغت ، فبلغ ذلك نعيان ، فسكت ماشاء الله ، ثم رآه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد ، فقال لمحرمته: هل لك في نعيان ، قال : نعم ، فأخذه بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت ، فقال : دونك هذا نعيان ، فجمع يده بعصاه وضرب عثمان فشججه فصاحوا به ضربت أمير المؤمنين .

ونزل أصحاب رسول الله مرة بماء وكان نعيان بن عمرو يقول لأهل الماء يكون كذبا وكذا فيأتونه باللبن والطعام فيرسله إلى أصحابه فبلغ أبا بكر خبره ، فقال : أراني آكل من كهانة نعيان منذ اليوم واستقاء ما في بطنه .

« عمر بن أبي ربيعة^(١) »

إن أقرب حياة تنطبق وحياة هذا الشاعر الغزل « عمر بن أبي ربيعة » حياة الطائر الغريد الذي يبعث بترجيحاته اللذيذة وهو يتنقل بين أفنان الرياض النضرة ويرتشف من سلافة الثمار الحالية ، ويستنشق من عبير الورود العاطرة النادية ، نشوة في النفس فتغاريده تأتي صورة لما ينطبع في نفسه من جمال الجنان الفيحاء التي شاء أن ينهى غراماً بالتنقل بينها . فيستهوى بصدحه النفوس فهفو خلفه إلى حيث يقودها في نشوة تدعها لا تفكر إلا فيما يثيره فيها من مختلف الإحساسات العاطفية

(١) هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة واسم ربيعة حذيفة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر .

التي تعصف بالقوى العاقلة عصفاً لا تملك معه الاحتفاظ بآزائها فتستسلم له يعيث بها كيفما شاء له الهوى .

وهكذا كان شأن عمر بن أبي ربيعة : فما كانت غزلياته إلا صورة لما ينطبع في نفسه من مرأى الجمال الإنساني الفاتن الذي شاء عمر أن يكرس حياته على تتبعه فيختلب الألباب بها اختلاباً . وحقاً ان الإنسان ليأانس عند ما يتلو شعر عمر بنشوة من السرور تدب إلى نفسه كما تدب النشوة إلى رؤوس المخمورين في ساعات الأانس ولقد قال الفرزدق حينما سمع نسيب عمر « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت على الديار ووقع هذا عليه »^(١) . وسئل حماد الراوية عن شعر عمر فقال « ذاك الفستق المقشر »^(٢) وذلك لما أثاره شعر عمر في نفسيهما من الإحساسات العاطفية التي ما استطاع أن يحرك كوامنها فيهما غير عمر بشعره الرائع الرقيق . ولقد اهتدى عمر إلى نعمة شعرية لم يهتد إليها الشعراء من قبل فضمنها غزلياته فأكسبت شعره موسيقية رائعة وصل بها إلى نياط القلوب وجعلها لا تملك أن تهفو حوله وتحنو عليه . يقول أحد معاصريه بعد سماعه هذه القطعة من شعر عمر :^(٣)

يا ليتني قد أجزت الحبل نحوكم	حبل المعرف أو جاوزت ذا عشر
إن الثواء بأرض لا أراك بها	فاستيقنيه ثواء حق ذى كدر
وما ملكت ولكن زاد حبكم	وما ذكرك إلا ظلت كالسدر
ولا جذلت بشيء كان بعدكمو	ولا منحت سواك الحب من بشر
أذرى الدموع كذى سقم يخامره	وما يخامرني سقم سوى الذكر

(١) (١ و٢ و٣ الأغانى . ج ١ ص ٧٥)

كم قد ذكرك لو اجدى تذكركم يا أشبه الناس كل الناس بالقمر
« إن لشعر عمر بن أبي ربيعة لموقماً في القلب ومحاطة لنفس ليسا لغيره ولو كان
شعر يسحر لكان شعره سحراً » .

ولما سمع منه الفرزدق قصيدته التي يقول فيها .

فلما التقينا واطمأنت بنا النوى وغيب عنا من نخاف ونشفق
فقمنا لسكى يخليننا فترقرقت مدامع عينها وظلت تدفق
وقالت أما ترحمني لا تدعني لدى غزل جم الصباية يخرق
فقلن اسكتي عنا فليست مطاعة وخلق منا فاعلمى بك أرفق

ما تمالك نفسه أن صاح « أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس لا يحسن والله الشعراء
أن يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية » وجاء جميل بن معمر
العذري صاحب بئينة ليفاخره - بالشعر الغزلي طبعاً - فأنشد عمر قصيدته التي منها قوله:

فسلمت واستأنست خيفة أن يرى عدو مقامي أو يرى كاشح فعلي
فقلت وأرخت جانب الستر إنما معي تكلم غير ذي رقبة أهلي
فقلت لها ما بي لهم من رقب ولكن سرى ليس يحمله مثلي
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طيببات بحالة ذي الشكل
عرفن الذي تهوى فقلن ائذني لنا نطف ساعة في برد ذي ليل وفي سهل
فقلت فلا تلبثن قلن تحدثي أتيناك وانسبن انسياب مها الرمل
فقمنا وقد أفهمنا ذا اللب إنما أتيناك الذي يأتي من ذاك من أجلي

« فقال هيات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس اللبالي والله ما يخاطب
النساء مخاطبتك أحد وقام مشمراً » .

ولعل هذا هو السر في تهافت ربات الحجال على عمر وتعرضهن له واشتياقهن لمحدثته
ومجالسته . ولا كبير لوم عليهن إذا ما رأينا منهن من يتمنين أن يتغزل بهن عمر فقد
رأيناه يستنزل بشعره خلفاء بني أمية من كبارهم ويستهوهم بفنه فيودون لو يمدحهم
عمر فهذا سليمان بن عبد الملك يقول له « ما يمنعك من مدحنا » فيجيبه بقوله « إني
لا أمدح الرجال ، إنما أمدح النساء » .

فما بالك برقيات الحس وهن يسمعن من عمر مثل هذه الأغرودة التي يوقعها على
أوتار قلوبهن اللطيفة توقيعاً .

تصابى القلب وادكرا	صباه ولم يكن ظهرا
لزيب إذ تجدد لنا	صفاء لم يكن كدرا
أليست بالتي قالت	لمولاة لها ظهرا
أشيري بالسلام له	إذا هو نحونا خطرا
لقد أرسلت جاريتي	وقلت لها خذي حذرا
وقولى في ملاطفة	لزيب نولى عمرا
فهزت رأسها عجباً	وقالت من بدا أمرا
أهدأ سحرك الذس	وان قد خبرني الخبرا

وقوله :

ما زال طرفي يحار إذ برزت	حتى رأيت النقصان في بصرى
أبصرتها ليلة ونسوتها	يمشين بين المقام والحجر
ما إن طمعنا بها ولا طمعت	حتى التقينا ليلاً على قدر
بيضاً حسناً خرائداً قطفا	يمشين هوناً كشية البقر

قد فزن بالحسن والجمال معاً وفزن رسلاً بالدل والخفر
ينصتن يوماً لها إذا نطقت كما يشرفنها على البشر
قالت لترب لها أحدثها لنفسدن الطواف في عمر
قوى تصدى له ليعرفنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسمى على أثرى
من يسق بعد المنام ريقها يسق بمسك وبارد خصر

ألا يرى معى القارىء أن عمر ابتكر في غزلياته طريقة الشعر القصصى فهو في كل شعره يقص ما قال لحبيبته وما قالت له وما تحدث به أترابها مما لم يكن متداولاً في شعر الشعراء إلا ما كان في شعر امرئ القيس وربما كانت هذه الطريقة هي التي سببت له هذا التفوق على غيره وهي التي جعلت لشعره هذه النغمة الساحرة ، وعلى كل فإن من كانت تجرى على لسانه مثل هذه الأبيات الرقيقة والتي كان ينفثها في وجوه العوانى كما ينفث الساحر الرقى فإن النساء لا يملكن أن يقعن عليه كما يقعن الفراش على الزهرة المتفتحة .

وكان عمر لم يكن في تكوينه إلا من عواطف بحثة وشعور مستفيض . فهو يرينا منه دواماً عاطفة متوجهة لا يحمد لها أوار ، وشاعرية فياضة لا ينضب لها معين وكان في جميع أدوار حياته كبلبل الروض الذي لا ينتقل من دوحة ألا ليرف على بانه ، ولا يهبط من فنن إلا ليعترع من جدول ، ولا يغادر غصناً إلا ليحوم على زهرة ، ولا يكاد يثبت في مكان حتى يثب إلى غيره . وهو في كل ذلك يرسل أشعاره فتأتى من أحسن الأغاريد، فهو يصور لك مواقع الفتنة في الجمال الإنساني المنخبوء والذي

ما حظى باكتشافه من تحت طيات الخمر ومن وراء زوايا الخدور أحد مثل عمر وكان
يبرز وصف تلك الحبات إبرازاً شعرياً رائعاً على طريقته الشائعة البديعة فيستهوى
الشيب قبل الشبان لتتبع خطاه واستمع لعمر كيف يقص عليك هذه القصة الشعرية
الليديّة .

يا خليلي شفني الذكر	وجمول الحى إذ صدروا
ضربوا حمر القباب لها	وأديرت حولها الحجر
سلكوا شعب النقباب بها	زصر تحتمها زصر
وطرقت الحى مكتمتا	ومعى غضب به أثر
وأخ لم أخش نبوته	بنواحي أمرهم خبير
فإذا ريم على فرش	في حجال الخبز محتدر
حوله الأحراس ترقبه	نوم من طول ما سهروا
شبهه القتلى وما قتلوا	ذاك إلا أنهم سمروا
فدعت بالويل ثم دعت	حررة من شأنها الخفر
ثم قالت للتى معها	ويح نفسى قد أتى عمر
ما له قد جاء يطرقنا	ويرى الأعداء قد حضروا
لشقاءى كان علقما	ولحيثى ساقه القدر
قلت عرضى دون عرضكم	ولن ناواكم الحجر

هل تجد أيها القارئ الكريم مثل هذا الإحساس الغريب الذى تبمته هذه القصة
الشعرية من تصوير عمر فى النفس فى شعر غيره ؟ ولهذه الميزة التى امتاز بها شعر عمر
كان شعره مادة قوية للفن الغنائى الذى ازدهر فى الحجاز فى ذلك العصر فلقد كان

جل غناء معبد وابن سريج وابن عائشة وغيرهم من كبار المطربين والمطربات في مكة والمدينة
من غزليات عمر .

ومن اكتشافات عمر الرائعة لطبيعة المرأة قوله :

قالت وعيش أختي وحرمة والدي لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسّمت فعلت أن يمينها لم تخرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
فلثمت فاهها آخذاً بقرونها شرب الزيف يبرد ماء الحشرج
وقد يعف عمر فيقول :

طال ليلي واعتادنى اليوم سقم وأصابت مقاتل القلب نعم
حرة الوجه والشمائل والجو هر تكليمها لمن نال غم
هكذا وصف ما بدا لى منها ليس لى بالذى تغيب علم
إن تجودى أو تبجلى فبحمد لست يا نعم فيهما من يذم

والتتبع لشعر عمر لا يخرج من تلاوته إلا وقد اختلطت أجراسه الساحرة بشغاف
قلبه وربما رأى طيف عمر اللطيف يطل عليه من غياهبه فيمتلك عليه عنانه ويقوده فلا
يتركه حتى يورده مسارح أنسه وملاعب صبوته فى رياض الطائف ، أو فى شهاب
مكة . أو فى عقيق المدينة أو عند وادى الغمس أو بوادى قرن المشهور بوادى محرم
اليوم حيث الوجوه الصباح ، والعيون الفواتر .

والتتبع لشعر عمر لا يرى فيه ما يدل فتور فى عاطفته أو نضوب فى شاعريته . على
كثرة ما قال فى كثرة من رأى ممن وقف نفسه على تبهمهن .

ثم هو في شيخوخته لا يقل عاطفة عما كان عليه وهو في عنفوان شبابه وميعة فتوته .

وبالجملة فإن من أراد أن يتصور الصبوة والشعر ، والرقّة والظرف ، والجاذبية والبشر في شخص، فليمتصورها في شخص عمر فما كان يرحمه الله إلا معنى من معاني السرور المحض مشى فترة من الزمن بين الأحياء ليلفت أنظارهم إلى مباهج الحياة . فلقد عني عمر نفسه بتتبع الجمال أياً كان وحيثما وجد : يقول مصعب ابن عروة بن الزبير خرجت أنا وأخي عثمان إلى مكة حاجين أو معتمرين فلما طفنا بالبيت مضينا إلى الحجر نصلي فيه فإذا شيخ قد فرج بيني وبين أخي فأوسعنا له فلما قضى صلاته أقبل علينا فقال من أنتم فأخبرناه فرحب بنا وقال يا ابني أخي إني موكل بالجمال أتبعه وإني رأيتكما فراقني حسنكما وجمالكما فأستمعنا بشبابكما قبل أن تندما عليه فسألنا عنه فإذا هو عمر ابن أبي ربيعة .

ويقول الكلبي : إن عمر بن أبي ربيعة كان يساير عروة بن الزبير ويحادثه فقال : أين زين الموالكب - يعني ابنه محمد - وكان يسمى بذلك لجماله ، فقال له عروة هو أمامك ، فركض يطلبه فقال له عروة يا أبا الخطاب أولسنا أكرماء أكراماً لمحادثتك؟ فقال: بلى بأبي أنت وأمي، ولكنني مغرى بهذا الجمال أتبعه حيث كان ثم التفت إليه وقال :

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لي فيه إلا لذة النظر
ثم مضى حتى لحقه فسار معه وجعل عروة يضحك تعجباً منه .

ولد عمر بالمدينة المنورة سنة ٢٣ هـ ومات سنة ٩٣ هـ ولئن كان البلي قد أودى
بجثمانه . فإن غزلياته ما زالت ولن تزال محتفظة برونقها وفتنتها كيوم نقمها من فيه
لم يذهب بطلاوتها ورونقها كرا لغداة ولا من العشى ولم نزل أشعاره رغم القدم
كبسمة مغرية من غانية مرحة تحفق القلوب لمنصرتها ، وتنتعش النفوس لهجتها .
ويزهو بها تاريخ الحجاز الشعري . وحق لعمر بن أبي ربيعة أن يكون في مقدمة
الشعراء الحجازيين الذين لم يفض شعورهم إلا للجمال وما طلبوا بشعرهم غير الفن
إرضاءً للفن . فكتب له بذلك الخلود يغفر الله له ونسأله أن يسبغ عليه من شآبيب
رحمته ما هو في أمس الحاجة إليه .

المجتمع الحجازي

بين اليوم والأمس

سعيد بن محمد بن أبي زيد أبناء دننا . محمد بن مسلم بن حجاز

لقد كان للآباء الأجداد والأسلاف الكرام ، أولئك الذين كان يتألف منهم المجتمع الحجازي في عصوره الغابرة من متانة الأخلاق ، وحميد الصفات ، وكريم السجايا وشريفها ما يدع الإنسان يعجب مما وصلت إليه حالتنا اليوم من هذا الانقلاب الخلق والنفساني المضاد لما كانت عليه حالة الآباء الأول .

حالة مجتمعنا لا تتفق بوجه من الوجوه مع ما كان عليه الجمهور الحجازي السابق حتى كأننا لا نتم إلى أسلافنا بسبب من الأسباب ، فلقد صار البون بيننا وبينهم كالبون بين الأرض والسماء ، وما أدري ماذا حدث في تكويتنا ؟ أو ماذا طرأ علينا من التأثيرات حتى جعل شقة الخلاف تبعد هذا البعد بين الآباء والأبناء فعاداتنا اليوم لا تتفق وعاداتهم بالأمس ، وأخلاقنا ليست كأخلاقهم ، ونفوسنا تأتي الاقتراب من نفوسهم ، وتقاليدها تتنافى مع تقاليدهم وما كانوا عليه . اللهم إلا ما كان من أمر الدين وتقاليده التي لا يمكن أن تمتد إليها يد الزمان فتغير أو تبدل منه شيئاً ، حتى أنهم لو بعثوا لأنكروا علينا كثيراً من أعمالنا ولساءهم ما وصلت إليه حالتنا اليوم ولاستوحشوا من المقام بيننا ولولوا منا فراراً وملتثوا منا رعباً ولهرولوا لائذين إلى قبورهم مفضلين البقاء تحت أطباقها على العيش معنا تحت أجواز الفضاء .

فلقد كانوا يوم كانت الحياة تدب في أوصالهم يتخرجون أن يدخلوا في أفواههم لقمة دون أن يتيقنوا حلها ، ويحرصون على أن لا يكون في جيوبهم درهم إلا عن

طريق الاكتساب الشريف الطيب ، وكانوا لا ينفقون إلا بقدر ما يكتسبون ولا يكتسبون إلا بقدر ما ينتفعون ، ويأنفون أن يكون لهم عمل من قبل السلطان ، ويتعففون عن قبول الصدقات ، ويروضون أنفسهم على الرضا بما قسم لهم من نصيب الحياة فلا يتأففون ولا يتذمرون ، مع المحافظة على كرامتهم وعزة نفوسهم ، والتنمر لمن أراد أن يخذش كبرياءهم أو يمتهن كرامتهم ، أو يفض من مكانتهم أو يستخف بعزتهم .

« سعيد بن محمد »

أين في مجتمعنا اليوم ؟ مثل سعيد بن محمد بن أبي زيد الذي يحدثنا عنه محمد بن عمر فيقول : « كان سعيد بن محمد رجلاً من أهل الدين والورع والفضل والعقل وكانت له أريضة سبخة تغل في السنة دينارين وكان يقتصد في ذلك ويجترئ به ويفدو وجاربه فيلقط بلحات من أرضه ويرسل بها إلى أهله صبوراً على تلك الشدة لا يشكو من ذلك قليلاً ولا كثيراً ويُبعث إليه فيقول أنا بخير وينضب على من يبعث إليه ويمتعض من ذلك امتعاضاً شديداً . أصون الناس لنفسه ، يخرج إلينا فيحدثنا في ثوبه ذينك في الشتاء والصيف لا تراهما أبداً إلا نظيفين وكان يدعى إلى الوليمة فيجيبها ولا يأكل منها شيئاً ويدعو لأصحابها ، فيقال لم لا تأكل يا أبا محمد من هذا ؟ قال أكره أن أعود بطني الطعام الطيب فلا يرضى بما أطعمه لا أريد أن أشره إليه ، ولما ولي عبد الرحمن بن أبي الزناد خراج المدينة أرسل إلى سعيد بن محمد بمائة دينار ، فقال والله لا أقبلها أبداً ولا هي من شأني سبحان الله أما يستحي من هذا ؟ قال فأولاه ولاية قال لا أفعل فلم يزل يرسل إليه الرسل قال فجاء فقال عرفت أنك تريد أن تصنع إليّ وإن من تمام صنيعتك أن تعفيني فإني لا أريد وعندى بحمد الله غني عنه ، فتركه وأعفاه .

إنها العفة تتجسم في شخص سعيد هذا ولعمرك الله إنها صفة جدرة بأن يتخلق بها سكان الحرم وجيران الرسول في زمننا الذي نعيش فيه إذ لا أثر لهذه الصفة الجليلة بين أبناء هذا الجيل .

مالنا اليوم نتكالب على الذهب والفضة ولا يهمنا في حياتنا إلا أن نحتمى جيوبنا وخزائنا على أكبر كمية من هذين المعدنين غير سائلين ولا متحجرين في اكتسابهما شيئاً ، ولا نبالي من أى الطرق تأتينا فنلجها غير هيايين ولا مشفقين بما نبوء به من الخسارة العظمى التي نمنى بها في ديننا وعزتنا ، لا ضمير يؤنبنا ولا رادع لنا من أنفسنا يزجرنا عن الانغماس في الطرق المموجة الملتوية ما دمنا نؤمل من سلوكها الاكتساب أيّاً كانت صفته ومهما كان نوعه ، يكون عند أحدنا من الأسباب المعاشية أشرفها وأزكاها تدر عليه من مواردها وأرباحها ما يغمره بخيراتها وربما كان فينا من يتمتع بثروة ضخمة وتجارة واسعة فلا يتمفف عن منازعة البؤساء في مههم ، ومشاركة الفقراء في صدقاتهم .

على هؤلاء أن يعيروا التاريخ التفاتة ليروا أسلافهم من الأغنياء ، وكيف كانوا يمرضون عن ممارسة الوظائف الحكومية فضلاً عن قبول الصدقات التي يأنف من قبولها كل من يشعر بالعزة بمعناها الصحيح .

إن هذه الطريق طريق الاكتساب من الصدقات ما أعدت إلا للعجزة وما عبتت إلا لیسلكها الذين لا حول لهم ولا قوة على الكفاح لنوال الرزق من طريقه المشروعة أما الذين يريدون الاحتفاظ بمكانتهم والارتفاع برجوتهم ولا يريدون أن تلوكنهم الألسنة بما يندى له الجبين فهم ربأون بأنفسهم

أن تستقيم للاكتساب من هذه الطريق السهلة ويترفعون بشخصياتهم أن توسم
بميسم الخنوع والانكسار .

« أبناء دينار »

كان داوود وشميل ويحيى أبناء خالد بن دينار يزاولون التجارة وكان ولاؤهم لبني
العباس فلما أدال الله لمواليهم في الأرض وولى عبدالصمد بن علي بن عبد الله بن العباس
المدينة بعث إليهم فمرض عليهم وظائف وأعمال حكومية لولائهم له ، فقالوا : أصلح
الله الأمير نحن قوم تجار ولا حاجة لنا في عمل السلطان فاعفنا .

ها هم أولاء عافت نفوسهم الوظائف حباً في العمل الحر الشريف ، وفضلوا أن
يتناولوا قياتهم التي تقيم أودهم من أخلاف السلع ، وبرهنوا على اعتدادهم بأنفسهم
في معالجة شؤون الحياة بعد الاعتماد على باري السمات المتكفل بالأرزاق ؛ على عكس
مازاه اليوم من تهافت الشبان على الوظائف ، وإعراضهم عن مزاولة الأعمال الحرة
التي ربما تعود عليهم بأفضل مما تعود عليهم بها حياة الوظيفة وعملها .

فيا من سيتألف منكم المجتمع العربي الجديد في الغد القريب . أنتم
يا ناشئة البلاد ، روضوا أنفسكم واحملوها على أن تكونوا أمثال بني خالد بن دينار
وسعيد بن أبي زيد ، وارباؤا بأنفسكم أن تكونوا على غرار هؤلاء الذين ماتت ضمائرهم
من الآباء ، ومن كان على شاكلتهم من الأقرباء . وبذلك تؤلفون مجتمعاً عربياً حجازياً
كل أفرادة أعزة أقوياء .

« محمد بن مسلم بن حجاز »

ولأجل أن تعلموا ما كانت عليه حالة القوم وما آلت إليه حالتنا اليوم أمرد

عليكم وصية محمد بن مسلم بن حجاز ، فإنه لما حضرته الوفاة قال : « إني كنت أسمع أهل الدار يتشكون من ميزاب لنا على طريقهم في الدار وأدرت آبائي في هذا المنزل وهذا الميزاب في موضعه فأردت أن أغيره إلى موضع آخر فلم أجد في الدار موضعاً يصلح أن يغير فيه وذهبت أريد النقلة فلم أقو عليها وخشيت أن أتحوّل بينات أخي نسيئات ضعافا عورة . وقد مات أبوهن حديثاً فيضمن ، فأحب أن تكلموا أهل الدار في الميزاب أن يحلوني منه وإن كان في ذلك تباعة غداً ، وجارى هذا إسحاق بن شعيب قد أرسل إليّ في أن يفتح كوة في بيتي ليضئ له بيت مظلم ويرفع السكوة إلى السماء حتى لا تكون عورة فأنعمت له فأحضر آله ثم ذكرت أن بنات أخي صبايا ولم آمن عليهن العورة فأبيت أن أفعل فتكلمونه أن يحلني من قولي له نعم ، ثم قولي لا ؛ وهذه ثلاثة دراهم في رف صندوق منذ أكثر من ثلاثين سنة وكنت أعالج البر فلا أدري هي لي أو هي ودیعة أو قضائي غريم ؟ فتسألون عنها ثم تنفذون ما يأمرونكم فيها ؛ وقد كان آل فلان رهنوا عندي طستا على دينارين فأخبرت أن أهلنا أكلوا عليه مرة فتحللوني من صاحبها فإن فعل وإلا فردوا عليه الدينارين ؛ وأما النفقة التي تركت وهي نحو من سبعين ديناراً فثلثهما لبنات أخي وصية والثلاثان لبني أخي ميراثهم »

انظروا كيف كانت الخشية تغمر قلوب أسلافنا وكيف كان مبلغ التحري في تصرفاتهم الجليل منها والحقير ، ثم كيف كان الوفاء يدفع بهم فيعرفون ماللجار عليهم من حقوق وواجبات ، وكيف كانت الروء تدفعهم فيغفرون من يمت إليهم بصلة القرابة بعطفهم وحنانهم ، ويعولونهم أحياء ويوصون لهم أمواتا .

بأشباه هؤلاء كان يزخر المجتمع الحجازي ومن أمثال هؤلاء كان يتألف الجمهور الحجازي فهل نجد شيئاً من هذا يجعلنا نوازن بين مجتمعنا اليوم وما كان عليه المجتمع بالأمس؟ .

كلمة شكر واجبة

أتقدم بالشكر الجزيل لسكل من عمل على تسهيل أمر تأليف لهذا الكتاب ،
وسعى لطبعه وإخراجه ، وأخص منهم بالذكر حضرة الشيخ كامل كردى عضو
مجلس الشورى الموقر ، فقد سهل لى أمر مراجعة الكتب التى احتجت إليها ، من
مكتبته المشهورة بضخامتها ووفرة كتبها ، التى تعد بحق من أعظم دور الكتب
وأغناها فى بلادنا ؛ والأستاذ إبراهيم نورى مفتش المعارف العامة على مراجعته
للكتاب وما أبداه من ملاحظات قيمة ؛ وللأستاذين عواد والسباعى لتفضلهما بتقديم
الكتاب وتشجيعهما فى إخراجه .

ولا أنسى أن أقوم بواجب الشكر للمواطن الطيبة التى حبانى بها كل من أحبائى
السيد صديق فلالى والشيخ سعيد سبهانى والشيخ محمد على كردى والشريف شرف
ابن تلاب حيث لم يبخل على الأخيران بتقديم كل ما وصل إلى أيديهم من كتب
يسرت مراجعتى .

كما أتقدم بشكرى الجزيل وثنائى الجم للصديق الأستاذ أحمد ملائكة حيث
أفرغ وقته الثمين وساعدنى على إخراج هذا الكتاب ، وساهم بقسط وافر فى
تصحيحه وطبعه ، بالرغم من مشاغله ، مما ترك فى نفسى أثراً لن أنساه ، فله تقديرى
وامتنانى ما

المؤلف



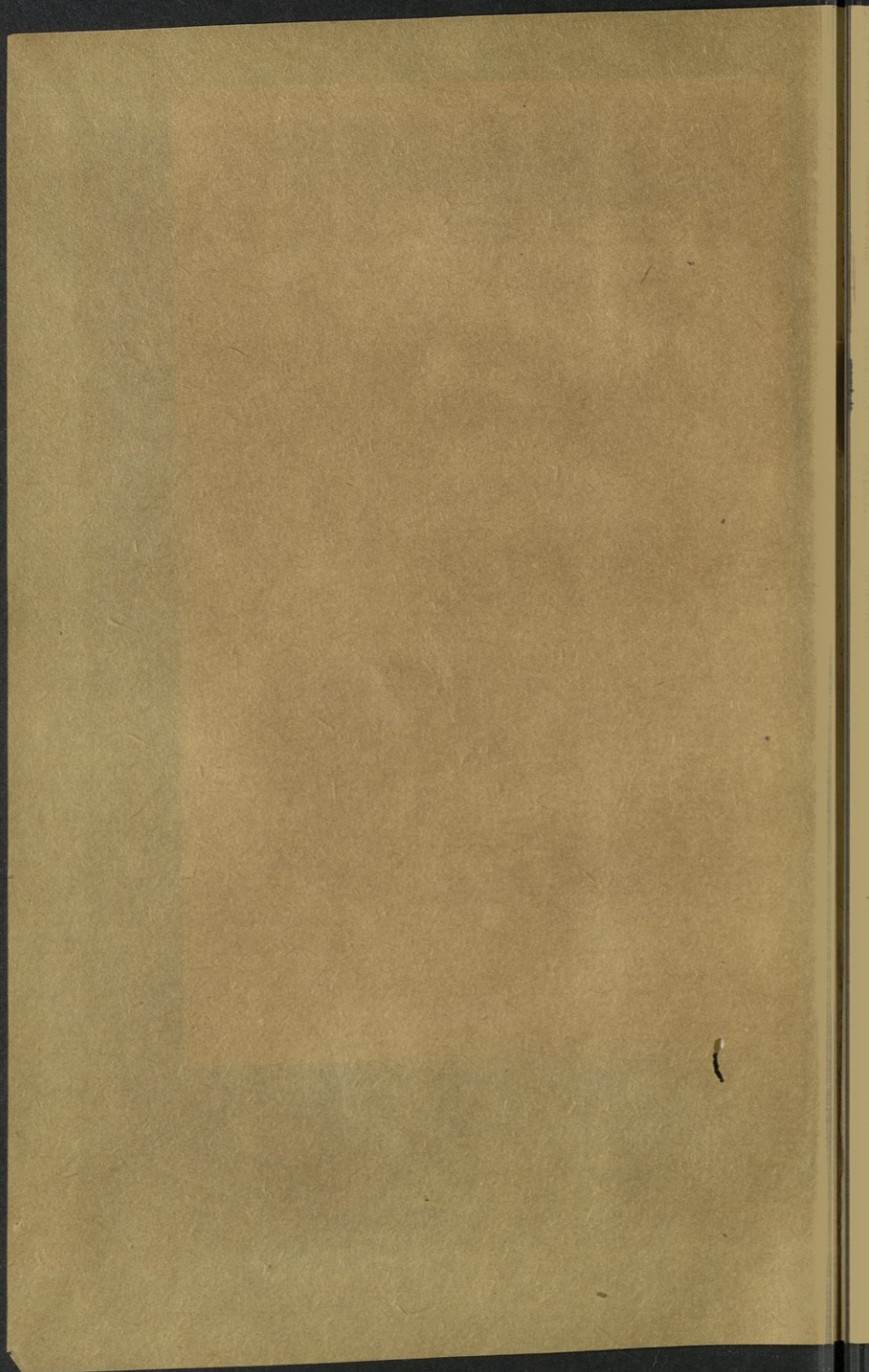
كان من آثار النهضة الحديثة، التي بدأت في الحجاز منذ نبوأ حكمه عاهل العرب (عبد العزيز آل سعود) أن تقدمت الحركة العلمية والأدبية فيه تقدماً محسوساً، وسارت بخطى واسعة، ولقيت من العطف والتشجيع ما مهد لها الظهور والاستقرار. وجاءت ظروف الحرب، فتأثر الحجاز بها كأى قطر عربي آخر، وأوشك الشباب - وهم عماد الحركة وجند النهضة - أن ينقطعوا عن عالمهم العربي فلا يسمعون صوت كتابه ولا شعراءه، ولا يرون منابر علمه وصحافته، لولا أن فكر نفر منهم في إنشاء مكتبة حديثة تمد يد المساعدة في الحصول على المؤلفات العلمية والأدبية التي تصدرها دور النشر في البلاد العربية، وتسهيل أمر بيعها، بحيث يتسنى لطبقة الموظفين وتلاميذ المدارس شراء ما يستجد بأثمانه المحددة في مصر، مضافاً إليها أجره البريد العادية، وقد اتفقت المكتبة مع أعظم دور النشر في مصر على القيام بوكالاتها في المملكة العربية السعودية، وبدأ أصحابها عملهم مستعنين بالله، جاعلين شعارهم (لا نريد ربحاً ولكننا ننشر علماء) وبذلوا من الجهد ما ظهر أثره في مدى شهور معدودة، حيث لقيت المكتبة من الإقبال والتشجيع ما أظهر بوضوح الرغبة المتطلعة في نفوس الشباب إلى حب

المطالعة والدرس ، والتعرف إلى كل جديد ، فكان الإقبال على شراء المؤلفات العلمية والأدبية والاشترك في الصحف والمجلات أسبوعية وشهرية ، على نحو ما تكن المكتبة تأمله ، حتى بلغ ما يصرف من المجلات في كل أسبوع ألف وخمسمائة مجلة ، وبلغت قيمة ما يبيع من الكتب الدينية والعلمية والأدبية في مدى عام واحد ستين ألف ريال .
وصرفت المكتبة جل جهدها في سبيل سد الحاجة إلى الكتب الدراسية التي تعذر إيجادها ، فجلبت جميع المقررات الدراسية التي يحتاج إليها الطلاب في معاهدهم ، وقدمتها إليهم بأرخص الأسعار وأقلها تكاليف ، مؤملة أن تؤدي واجبها نحو جنود العلم ورجال المستقبل ، وأن تساعد على تكوين جيل جديد يأخذ حقه من التعليم والثقافة ، ليواجه مستقبل الحياة ، وليسير ببلادته نحو الغاية التي تسعى إليها إن شاء الله .
وجعلت من أهدافها إيجاد رابطة فكرية بين الكتاب الحجازيين وكتاب العالم العربي ، وذلك بطبع المؤلفات الحجازية ونشرها في الأقطار الشرقية ، فاستطاعت في مدى هذا العام أن تبرز مجموعة طيبة من المؤلفات ، لا تدعى أنها هي النخبة الممتازة من الأدب الحجازي الرفيع ، ولكنها البنية الأولى التي تمهد لإشادة البناء القوي في أمد قصير ، راجية أن يكون في تلك المؤلفات وإبرازها تشجيع لفحول أدبائنا اللذين طووا مكاتبهم على ما أنتجوا من أدب وعلم يحق أن نباهي به ، فيقدمون على نشره وتصديره ، فعصر اليوم وحياته إنما يقومان على العمل والدعاية .

حقق الله ما فيه خير العروبة والإسلام ، وأدام عاهل العرب المفدى حتى تبلغ هذه المملكة الهدف الذي رسمه جلالته لها ، وحفظ سمو ولي عهده ، وسمو نائبه ، وأجالة أصحاب السموات الكرام اللذين شجعوا العلم ، وعطفوا على دور التعليم حتى نمت وترعرعت ، وأنجبت رجالاً أكفأ خدموا وظهرهم ومليكهم ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

سلسلة الأدب الحجازي الحديث

- | | |
|-----------------------|--------------------------------------|
| للأستاذ طاهر زنجشري | (١) المهرجان أو ذكرى الرحلة الفيصلية |
| » أحمد محمد جمال | (٢) ماذا في الحجاز |
| » عبد الله عريف | (٣) رجل وعمل |
| » فؤاد شاكر | (٤) رحلة الربيع |
| » إبراهيم فلالي | (٥) رجالات الحجاز |
| » عبد القدوس الأنصاري | (٦) بناء العلم في الحجاز الحديث |
| » أحمد عطار | (٧) الهوى والشباب (ديوان شعر) |
| » طاهر زنجشري | (٨) أحلام الربيع (ديوان شعر) |
| » إبراهيم فلالي | (٩) صبابة الكأس (رباعيات) |



920.053:F47rA:v.1:c.1

الفلاحي، ابراهيم هاشم

رجلات الحجاز

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01048610

American University of Beirut



920.053

F47rA

General Library

320.503: F47n A: V.1: ca. 1870